الهجرات العربية وصنع الحضارة

بقلم:
أحمد شوحان

حين نقرأ عن جغرافيا الجزيرة العربية حالياً، نجسدها صحارى قاحلة، وكثبان رمل متنقلة، وفيافي منقطعة، وجبالاً سوداء جرداء، لانكاد نجد فيها حياة، ولا تعيش فيها الا الزواحف البسيطة، والحيوانات البرية التي تتحمل الجوع والعطش. ولا نجد من البشر ما تتناسب كثافتهم مع تلك المساحات الواسعة.

وحين نقرأ في كتب الدين نجد القرآن الكريم يشير في آيات كثيرة الى جنّات معروشات، وجنّات عدن، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الجنة، من تلك الآيات:

(لقد كان لسبأ في مساكنهم آية جنّتان عن يمين وشمال)[1]

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب)[2]

(فأخرجناهم من جنّات وعيون)[3]

وحين نبحث في الكتابات التاريخية القديمة في بلاد ما بين النهرين نجد في أدبيّات السومريين نصوصاً تشير الى الجنة الموعودة، التي يحلم بها كل سومري، ويتمنى أن يعود اليها وهي «مدينة دلمون» التي تعتبر جنة الخلد بالنسبة لهم ففيها يقولون:

(أرض دلمون مكان طاهر.
أرض دلمون مكان نظيف.
أرض دلمون مكان مضيء)[4]

وقد اشار الرسول صلى الله عليه وسلم الى تلك الجنّات التي كانت في الجزيرة العربية في غابر الزمان فقال: (لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وانهاراً)[5] وكان حديثه هذا في القرن السابع الميلادي. وقد فهم علماء المسلمين على اختلاف اختصاصاتهم ان جزيرة العرب كانت في القديم عامرة زاخرة بالمدن والانهار، وان حضارات عريقة قامت على ضفاف تلك الانهار، كانت وسادت، ولظروف مجهولة بادت واندرست معالمها، واصبحت صحارى سافية الرمال.

وكان لهذا الحديث النبوي الشريف اثر بالغ لدى علماء التنقيب والآثار، فقد قام عالم الاثار الايطالي مارينا كيناتي عام ١٩٢٩ بدراسة ميدانية في الجزيرة العربية، فاكتشف في منطقة الربع الخالي بقايا آثار وبحيرات ومعابد واسواقاً، واحواض اسماك اصطناعية، ومستلزمات حضارية كثيرة، تثبت وجود حضارة عريقة في هذه الارض، وان هذه الرمال قامت عليها حضارات عريقة، وكانت فيها جنان وارفة. ويؤكد هذا العالم الآثاري (ان هذه الجنان هي التي كانت سبباً في رسم تلك الصورة في مخيلة كتّاب التوراة عن جنة عدن المذكورة في التوراة والقرآن)[٦]

وقد أشار القرآن الكريم الى «جنات عدن» في اكثر من عشر ايات وفي اكثر من عشر سور[٧].

كما قام الجيولوجي المصري فاروق الباز عام ١٩٩٣ برصد الجزيرة العربية عن طريق الاقمار الصناعية. فاكتشف نهراً كان يجري في الجزيرة العربية يبلغ طوله /٨٥٠/كيلو متراً، وتزيد مساحة دلتاه عن ثلثي مساحة الكويت، وان هذا النهر كان ينبع مع روافده الصغيرة من جبال الحجاز في غرب الجزيرة العربية، ويصب في رأس الخليج العربي في منطقة الكويت، واظهرت الدراسات ان عمر المياه داخل الارض يعود الى ما قبل (٢٠-٣٠) الف سنة. كما اوضحت تلك الدراسات ان مصبّ هذا النهر في منطقة «دلمون» التي تغنّى بها السومريون واعتبروها الجنة الموعودة. او هي «جنة عدن» التي كانت في الجزيرة العربية.

كما اكد الدكتور عمر ثابت (استاذ الجيولوجيا بجامعة الملك عبد العزيز) ان أودية خصبة قد طُمرت بفعل الكوارث الطبيعية يعود تاريخها الى ملايين السنين، وان مدناً كانت على ضفتي النهر المذكور، وان وادي الرمّة الموجود مكان النهر المكتشف يمتد من شرق المدينة المنورة حتى الكويت، ماراً بحفر الباطن، سمّاه مارينا كيناتي وادي الدواثر، ويعرف عند العرب حتى الآن بوادي الدواثر. اما وادي الرمّة فهو واد اخر يتجه من الطائف حتى عمان على الخليج العربي، وان بحيرة كبيرة كات تسمى «نيسس» تقع بين الرياض وحائيل ونجران كانت تتصل بالخليج العربي.

واكد الدكتور عبد العزيز سعود وكيل قسم الاثار في جامعة الملك سعود ان الجزيرة العربية من الاماكن الاولى التي سكنها الانسان لأول مرة في التاريخ، وقد اكتشفت في منطقة «الشويحطية» غرب سكاكا آثار جداول كانت تغذي بحيرة، على ضفافها عاش الانسان الاول منذ /١٫٢٠٠٫٠٠٠/ سنة قبل الميلاد.

اما الدكتور فهمي توفيق استاذ التاريخ في جامعة فيصل فقال: (إن الجزيرة كانت مهد الحضارة الإنسانية، بل هي ام الحضارات، وان العرب هم اصل البشر)[٨]

وقد مرّت على الجزيرة العربية فترات جفاف تصحّر مفاجئة أدّت الى غور الينابيع، وجفاف الانهار، وموت الحيوانات والخضرة التي كانت تعيش فيها، مما ادى الى هجرات جماعية من اماكن مختلفة من الحجاز والبحرين واليمن وغيرها. الى الشمال والغرب، حيث تتوفر الانهار والتربة الصالحة للزراعة، فنزلوا بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات، ووادي النيل، والشام، كما سلكت هذه الهجرات محاور اخرى منها: الى وادي النيل، والشمال الافريقي والمغرب العربي، والى القرن الافريقي، وغربي الحبشة.

ويؤكد المؤرخون الى جانب الآثاريين ان السبب الرئيسي لهذه الهجرات العظيمة، التي اقامت دولاً عظمى

وحضارات كبرى هو (شظف العيش في شبه جزيرة العرب، دفع الشعوب الى الاراضي الخصبة في الشام والرافدين، وانهيار السدود في اليمن، وخراب المدن)[9]

ولو اردنا ان نقف على جذور هذا الانسان الذي عاش في هذه المنطقة، التي تمتد من الخليج العربي الى المحيط الاطلسي، ومن جبال طوروس الى منابع النيل والقرن الافريقي، لوجدنا ان هذا الانسان هو العربي الذي اطلقوا على عرقه العرق السامي. لكن المؤرخين الغربيين - كعادتهم - قد ظلموا العرب حين جزّؤوهم وقسّموهم، ثم قالوا: العرب من الساميين.

وقد قسم المؤرخون الغربيون شعوب العالم الى ثلاثة عروق هي: العرق السامي، والعرق الحامي، والعرق اليافثي (أو الآري) وذلك (نسبة الى اولاد نوح: سام - وحام، ويافث - وهذا التقسيم على سذاجته سرى فترة طويلة، ولكنه فقد اليوم جميع مقوّماته.. وعلى هذا الاساس فإن لغة ما، درج الناس منذ التوراة على تسميتها سامية، ويمكن ان نسميها عربية، وهي تسمية ادق. هذه اللغة تكلمتها شعوب هاجرت من شبه الجزيرة العربية، وشكلت على ضفاف النهرين والنيل - وفي شمالي سورية والساحل، حضارات متعاقبة ذات جذور واحدة، ومظاهر متقاربة)[10]

ويؤكد الدكتور عفيف بهنسي ان هذه اللغة التي تكلمت بها تلك الجماعات، او القبائل البدوية المهاجرة من شبه الجزيرة العربية هي اللغة العربية (لأن التسمية في اساسها أ - ري - بي تعني سكان البادية والصحراء، ولأن الاقوام التي هاجرت نحو الشمال كانت من البدو الذين تحضّر بعضهم، واستمر كثير منهم في بداوته محتفظاً باسم العرب او الاعراب، وكانوا جميعاً يتكلمون هذه اللغة، لغة البادية او لغة العرب، على الرغم من اختلاف في اللهجات، واختلاف في نطق بعض الحروف)[11]

وقد اصبح الآن لدى كل باحث في التاريخ والتراث العربي ان كلمة (سامية) غير صحيحة، بل هي مفتعلة تاريخياً، وهم يريدون بها الشمولية لشعوب المنطقة. ولكنه ثبت اخيراً ان المراد بالسامية هي الجنس العربي حصراً، وان الشعوب التي كانت تعيش في هذه المنطقة منذ فجر التاريخ هي شعوب عربية بدائية ومتطورة ومتمدنة، أقامت حضارات مختلفة عبر التاريخ، وتغيرت لغاتها تدريجياً، كما تبدلت عقائدها وانتماءاتها الفكرية مع الزمن، وأثبت الباحثون في اصول اللغة العربية، ان اصول جميع اللهجات التي في الشام والحجاز وبلاد ما بين النهرين واحدة، وان الباحث في اصول الخط العربي المعروف بخط (المسند) يجد انه شبيه للخط المسماري الذي كتب به سكان الشام والرافدين، وهذا ما دعا الدكتور عفيف بهنسي للقول: (ومن حسن الحظ ان العلماء والمؤرخين المعاصرين من امثال سبنغلر Spengler وتوينبي Tuinby ودروزة وجواد علي أخذوا بإعادة النظر في تسمية الارض واللغات والاقوام التي عاشت بين الرافدين ووادي النيل، فأصبحت العروبة هي النعت الاقوى لجميع مقومات هذه الشعوب والحضارات، وهكذا نقول: إنه نشأت على هذه الارض العربية لغة عربية تطورت منذ عهد الاكاديين حتى يومنا هذا، مارة عبر العموريين الى الكنعانيين والآراميين، تاركة وراءها لهجات واضحة منها: الأوغاريتية، والكنعانية القديمة، والمؤابية، والعبرية، والفينيقية. التي اطلق عليها في أفريقيا (قرطاجنة) اسم البونية، ثم ظهرت اللغة التدمرية، والنبطية، التي منها اللغة العربية الحديثة)[12].

* **الأكاديون**

نزح الاكاديون من الجزيرة العربية، من منطقة الحجاز حوالي عام (٣٥٠٠ق.م) ويتوقع الباحثون انهم قد نزحوا من منطقة قريبة من ساحل البحر الاحمر، لا تبعد كثيراً عن مكة والطائف اليوم، واستوطنوا سهل شنعار في حوض الفرات الاسفل، وشكلوا دولة قوية (وكان عصر عظمتهم أيام سرجون الاول الذي قضى على المملكة السومرية حوالي سنة (٢٤٠٠ق.م)[١٣]

وقد بدأت جذور اللغة العربية في عصر الاكاديين، فقد (كتبت أول لغة عربية قديمة برموز مسمارية)[١٤]

وكان سرجون العظيم الاكادي يمتاز بطموحات واسعة لتوحيد المنطقة العربية من بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام التي تشمل العموريين والكنعانيين والفينيقيين، بل اعتبره المؤرخون (مؤسس اول فكرة عربية توحيدية سار عليها العرب حتى اليوم)[١٥]

* **الآشوريون**

نزح الآشوريون من الجزيرة العربية، من منطقة الحجاز حوالي عام (٣٥٠٠-٣٠٠٠ق.م) وكانوا يسكنون بجوار البحر الاحمر، قرب مدينتي مكة المكرمة والطائف. وقد نزحوا بسبب الجفاف والقحط الذي داهم الجزيرة العربية، فنزلوا جنوبي الموصل من بلا د ما بين النهرين، واقاموا الدولة الاشورية الكبرى التي امتدت من أرمينية الى الخليج العربي الى البحر الابيض المتوسط، وبلاد الشام، ووادي النيل، وقد امتازت هذه الدولة العظيمة بالامور العسكرية، وقد خضعوا للبابليين، ومن بعدهم للكاشيين، واستقلوا ايام آشور أو باليط (١٣٩٢-١٣٢٧ق.م) استقلالاً تاماً. وكان اوج المجد والتوسع ايام آشور باني بعل (٦٦٨-٦٢٦ق.م) وكانت النهاية على يد الكلدانيين في عام (٦١٢ق.م)[١٦]

ويشهد التاريخ للامبراطورية الآشورية بإنجازات وبطولات رائعة منها (المقاييس، والمكاييل، والتقاويم القمرية والشمسية، وقد سجّل لهم التاريخ تنظيف وتطهير فلسطين من اليهود، وتحريرها على يد أبطالنا العظام أمثال: سرجون الآشوري، وسنحاريب، ونبوخذ نصر، وآشور ـ باني بعل ـ)[١٧]

وقد استطاع الاشوريون ان يضعوا من الحديد اسلحتهم، فتغلّبوا بسلاحهم على خصومهم، واشتهروا بالعنف والبطش، والشراسة والتمثيل بجثث الخصوم، وارتكاب الفظائع في الوقائع العسكرية. ونتيجة لتلك الخشونة والبطش، انهارت هذه الدولة على يد أسرة كلدانية في بابل، وكان من اشهر ملوكها نبوخذ نصر الذي قضى على مملكة يهوذا سنة (٥٨٥ق.م) وفي عام (٥٣٩ق.م) اقتحم كورش الفارسي أسوار بابل، وانتقلت السيادة السياسية الى القدس حتى سنة (٣٣١ق.م) حين استولى الاسكندر المكدوني على الشرق، ولكن السيادة العربية عادت الى بلاد الرافدين عندما خرج الجيش العربي الاسلامي محررا العراق وبلاد الشام ومصر، منذ الثلث الاول للقرن السابع الميلادي)[١٨]

وكان الاشوريون يعبدون نفس آلهة البابليين تقريباً، غير انهم جعلوا من مردوخ البابلي (آشور) الإله الوطني، واصبحت (عشتار) تسمى (بعليت) وهي قرينة اشور.

وقد انقسم المجتمع الاشوري الى طبقتين:

١ ـ طبقة الاحرار: وهم الأعيان واصحاب الصناعات والمزارع والعمال.

٢ ـ طبقة العبيد: وكانوا يعاملون معاملة سيئة، ويباع افراد هذه الطبقة مع جميع افراد الاسرة في اسواق النخاسة.

* السومريون

اختلف المؤرخون في موطنهم الاول، لاختلاف الاثاريين في تحديد اصلهم، وتاريخ تواجدهم في بلاد ما بين النهرين، فمنهم من يقول: انهم من جنوبي التركستان، لتشابه حضارتهم مع حضارة (اناو). أو من آسيا الصغرى. أم من (دِلمون) في البحرين؟

وقد اعتاد كثير من المؤرخين والاثاريين ان ينسبوا كل حضارة قامت في الوطن العربي، ولا توجد لها ادلة قاطعة ناصعة، الى بلاد وأمم اخرى لسوء نواياهم تجاه هذه الامة الحضارية. وهم بهذه النوايا السيئة يبعدون عن العرب كل خصلة حضارية حميدة، ترفع من شأنهم بين الامم، مع أن السومريين يفخرون بالجنة التي يحلمون بها بعد الموت وهي (دلمون) اي (البحرين) حيث خلّدوها في كتاباتهم وأدبياتهم فقالوا:

في أرض دلمون لا تنعق الغربان.
ولا تصرخ الشوحة صراخها المعروف.
حيث الاسد لا يفترس أحداً.
ولا الذئب ينقضُّ على الحمل.
ولا الكلب المتوحش على الجدي.
ولا الخنزير البري يلتهم الزرع..[19]

لقد ذكر هذا الرأي الدكتور شوقي ابو خليل غيرةً على تاريخ هذه الأمة، التي نالت من مطاعن المؤرخين وباحثي الآثار كثيراً.

لقد عبد السومريون الشمس (شمس) والقمر (سين) وآله السماء (آنو) والهة كثيرة اخرى مثل (عشتار) وغيرها. وكانوا يؤمنون بحياة الانسان بعد وفاته للحساب، فهم يدفنون معه الطعام والشراب، والادوات التي يحتاجها بعد قيامه من القبر.

ويعتبر السومريون اول من سكن بلاد ما بين النهرين بعد الطوفان، واستمر حكمهم الف سنة من (٣٤٠٠-٢٤٠٠ق.م).

واشتهر السومريون بالطب الذي ارتبط بالكهانة، وتركيب الدواء، كما اشتهروا بالخط المسماري، وكانت لهم مكتبات حجرية، واشتهروا بالادب والشعر، واستعملوا المعادن في صناعة ادوات البيت والاسلحة. وقد عثر ضمن كتاباتهم على عبارة (أناس الفن الفضائية)[20] وقد تكررت هذه العبارة مراراً، ولعل سكان الاجرام السماوية الاخرى هبطوا قرب سومر في عصرهم، ويعتبر (أورنمو) من أعظم الملوك السومريين الذين وضعوا التشريع قبل حمورابي، وعاش أور ـ نمو ما بين (٢١١٢-٢٠٩٥ق.م) وهو (الحاكم المؤسس للأسرة الثالثة في أور، وباني أفضل زقورة لا زالت قائمة في بلاد ما النهرين القديمة)[21]

* الفراعنة

خرج المصريون القدماء (الفراعنة) من الجزيرة العربية في منتصف الالف الرابع قبل الميلاد تقريباً، ونزلوا وادي النيل. وذكر الطبري أن أبناء سام هم: (عابر، وعُليم، وأشوذ، وأرفخشد، ولاوذ، وإرم، وكان مقامه بمكة. فمن ولد أرفخشد الانبياء والرسل وخيار الناس، والعرب كلها، والفراعنة بمصر)[22]

وكذلك ذكرهم ابن الاثير الجزري في كتابه (الكامل في التاريخ) فبعد أن ذكر أولاد سام، ذكر أولادهم وأماكنهم وأنسالهم فقال: فمن ولد لاوذ بن سام فارس وجرجان وطسم وعمليق، وهو أبو العماليق، ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيون، والفراعنة بمصر، وكان أهل البحرين وعمان منهم، ويسمون جاشم)[23]

ويذكر المؤرخون أن وادي النيل كان مليئاً بالسكان، وكانوا خليطاً من نوبيين أفارقة (عرب وصلوا الوادي إما عن طريق باب المندب، وإما عبر برزخ السويس،

اجتذبهم خصب أرضه، ووفرة مياهه)[٢٤]

وقد راح هؤلاء العرب الذين نزحوا من الجزيرة العربية يشكلون دويلات وحكومات صغيرة كانت تتحد مع بعضها في الشمال والجنوب حتى قام ملك الجنوب (مينا) فوحّد الشمال والجنوب في دولة واحدة، وجعل عاصمتها (منفيس) واصبح حكّام مصر الفراعنة ينتسبون الى أسَر مشهورة بلغت إحدى وثلاثين أسرة، انتهت آخرها في سنة ٣٣٢ق.م حينما دخل الاسكندر المكدوني مصر[٢٥]

وكان الشعب المصري ينظر الى فرعونه نظرة قدسية، ويعتبرونه إلهاً. وقد عبدوا الإله (رع) إله الشمس، وعبدوا القمر، وهو من أقدم الآلهة التي عبدوها، وصوّروا الآلهة بصورة الإنسان، لكنه برأس حيوان، وله بعض الأعضاء الحيوانية الاخرى كالذيل مثلاً، واشتهروا بتحنيط الموتى، لاعتقادهم ان الميت يعيش في القبر، وأن الشمس قبيل غروبها تشرق على الاموات (الذين هم أحياء باعتقادهم) في قبورهم،

وكان الفراعنة يبيحون للأخ أن يتزوج من أخته، لأن الملك (فرعون) يبيح لنفسه ذلك لنقاء الدم الملكي، ومن بين الملكات المصريات اللاتي تزوجن من إخوتهن الملكة (نفرتاي)، فقد تزوجت من أخيها كامس ثم من أخيها أحمس[٢٦]

وقد أقام المصريون حضارة شامخة، لا تزال الاولى من نوعها.

*** الكنعانيون**

نزحوا من الجزيرة العربية حوالي عام (٢٥٠٠ق.م) من البحرين[٢٧] ونزلوا سورية الجنوبية، وانتشروا في فلسطين والساحل السوري. وفي عام (١٢٠٠ق.م) هاجر موسى وجماعته الى أرض كنعان، وأقام يشوع بن نون ـ بعد موسى ـ كياناً بسبب ضعف وانقسام الكنعانيين العرب، واحتل داود القدس سنة (١٠٠٠ق.م)، والباقي من أرض كنعان بقي بيد الكنعانيين والشعب الفلستي (الفلسطيني)، وفي عام (٩٣١ق.م) انقسم العبرانيون الى:

السامرة في الشمال، وقضى عليهم الاشوريون بقيادة سرجون الثاني سنة (٧٢٢ق.م)

ويهوذا في الجنوب، وعاصمتها القدس، وقضى الكلدانيون عليها بقيادة نبوخذ نصر سنة (٥٨٦ق.م)

كل ذلك والسكان الاصليون لم يغادروا البلاد، ولم يتركوا الارض، وأثّروا باليهود حضارة، ولغة، وعادات[٢٨]

*** الفينيقيون**

نزحوا من الجزيرة العربية حوالي عام (٢٥٠٠ق.م) وهم من الكنعانيين، واطلق عليهم اليونانيون اسم (فينيقية) ونزلوا الساحل السوري، واقاموا الحضارة الفينيقية، وتوسعوا في فتوحاتهم، ففتحوا قبرص، وسيطروا على سواحل المغرب، وصقلية، وجزر البحر الابيض المتوسط، وسواحل الاندلس الجنوبية، والشرقية، ووصلت سفنهم الى السواحل الجنوبية لبريطانيا، التي كانت تسمى (بلاد القصدير). كما أرسلوا سفنهم بقيادة القائد حنون، الذي قاد ستين سفينة عليها ثلاثمائة بحار، من قرطاجة في تونس ـ فعبرت مضيق جبل طارق، فالمغرب، وموريتانيا، والسنغال، وغانا، وغينيا، حتى بلغت الكاميرون. وكتموا هذه الرحلة حتى لا ينافسهم في احتكار التجارة أحد.

وأهم ممالك المدن الفينيقية: أوغاريت (رأس شمرا) بيبلوس (جبيل) صيدون (صيدا) أرادوس (أراد) وقرطاجة في تونس[٢٩]

*** العموريون والبابليون**

نزحوا من الجزيرة العربية حوالي عام (٢٥٠٠ق.م) من منطقة البحرين.

ونزلوا في عدة مناطق، في فلسطين والساحل السوري، وسورية الوسطى، وبلاد ما بين النهرين. واستعدت دويلاتهم وممالكهم الى شمالي سورية والجزيرة السورية (الجزيرة الفراتية) وبلغوا حدود الدولة الاكادية في جنوبي العراق[٣٠].

والبابليون من العموريين الذين نزلوا وسط العراق، واتخذوا من بابل (باب إيل) أي باب الإله عاصمة لهم. وقد اشتهروا بسنّ القوانين لتنظيم المجتمع مثل (قوانين حمورابي ملك بابل الذي حكم ما بين عام ١٧٩٢ وعام ١٧٥٠ قبل الميلاد)[٣١] وقد امتازت قوانينه انها كانت تعاقب بالمثل (العين بالعين) وعُرفت المحاكم فيها، وخاصة محاكم الاستئناف، وإثبات الشهود عند الخلاف امام القضاة. وكان المجتمع البابلي مقسماً الى ثلاث طبقات:

١ ـ الطبقة العليا: وهي طبقة الاحرار الذين يتمتعون بكافة الحقوق. وهم سادة المجتمع.

٢ ـ الطبقة الوسطى: وتشمل الفقراء والمساكين من الاحرار، والاحرار الذين تزوجوا من إماء.

٣ ـ الطبقة الدنيا: وهم العبيد، وقد منحهم حمورابي حق الزواج من حرائر ليكون أولادهم احراراً. وكانت أجسامهم توسم بعلامات كالكي بالنار، والوشم بالأبر والحبر والإثمد، لتميزهم عن غيرهم.

*** الهيكسوس**

خرجوا كما يرى الدكتور شوقي أبو خليل من منطقة (إدوم) جنوبي فلسطين، ونزلوا مصر ووادي النيل سنة (١٧٣٠ق.م) وأسسوا دولة قوية عاصمتها أفاريس (تسمى الآن: صان الحجر) وأخرجهم أحمس الاول عام ١٥٨٠ق.م[٣٢]

*** الأمازيغ**

هاجر الأمازيغ من منطقة (أور) في جنوبي العراق، واتجهوا الى سيناء ومنها ساروا غرباً حتى نزلوا جبال الاطلس في بلاد المغرب. ويرى ابن خلدون أن الامازيغ من منطقة حضرموت في جنوبي الجزيرة العربية، وانهم ركبوا البحر من مضيق باب المندب فالبحر الاحمر ووادي النيل، ثم نزلوا في منطقة جبال الأطلس[٣٤].

*** الآراميون**

نزحوا من الجزيرة العربية (منطقة الحجاز) حوالي عام (١٥٠٠ق.م) من منطقة الأكاديين قرب مكة والطائف وساحل البحر الاحمر، ونزلوا سورية الوسطى، وشواطىء نهر الفرات[٣٣]

*** الأنباط**

نزحوا من الجزيرة العربية، ومن منطقة الحجاز، حوالي عام (٥٠٠ق.م)، ونزلوا سورية الجنوبية، وسواحل خليج العقبة، وأسسوا مملكة الأنباط فيها، (واحتلوا دمشق عام (٨٥ق.م) في عهد الملك الحارث الثالث، وبلغت دولة الانباط أوج اتساعها زمن الحارث الرابع (٩ق.م-٤٠م) وقضى الرومان على دولة الانباط عام (١٠٦م)[٣٥]

*** الغساسنة والمناذرة**

نزح الغساسنة والمناذرة من اليمن حوالي عام (١٥٠ق.م) ونزلوا في المنطقة الجنوبية من سورية، وجنوبي دمشق.

ونزل المناذرة في جنوبي العراق حتى سواحل الخليج العربي، قرب البصرة والكويت الآن.

*** مملكة أكسوام**

في عام (٥٠٠ق.م) نزحت قبائل من الجزيرة العربية، من منطقة سواحل البحر الاحمر (منطقة جدة الآن) وعبرت البحر الأحمر الى شواطىء السودان الشرقية، واستوطنت شواطىء نهر عطبرة[٣٦] كما خرجت هجرات قبائل عربية من اليمن، وعبرت مضيق باب المندب الى افريقية، واخترقت الحبشة واستوطنت في جنوب

شرقي السودان وسواحل البحر الاحمر.

*** جزر القمر**

هاجرت قبائل عربية قبل الاسلام وبعده، من اليمن والسواحل العمانية الى الشواطىء الجنوبية والشرقية لأفريقية، وأسسوا ممالك وإمارات لا تزال تحمل طابعها العربي، وتعتز بتراثها الاسلامي، من تلك الهجرات التي نزلت في جزر القمر والقرن الافريقي وغيرهما من السواحل الشرقية الافريقية.

*** هجرة القبائل العربية لبلاد ما بين النهرين**

هاجرت مجموعة من القبائل العربية من الجزيرة العربية الى الشمال طلباً للماء والمرعى والاستقرار، مثل قبيلة تغلب التي كانت تسكن في تهامة ونزحت في عام (٣٨٠م) ونزلت على شواطىء الفرات وفي الجزيرة على ضفتي الخابور حتى الموصل ودنيسر حتى بلغت البليخ ورصافة هشام.

كما أن بعض القبائل الاخرى خرجت قُبيل وبعد تغلب الى هذه الديار الجزرية مثل: بنو بكر، وقيس، وربيعة، والنمر بن قاسط، وإياد، وبهراء وتنوخ. وقد امتد هذا التواجد للعرب النازحين من الجزيرة العربية قروناً، واقتدوا من الخليج العربي عند مصب الفرات الى أعاليه قرب جبال طوروس حتى سميت المنطقة التي نزلوها (الثغور الجزرية) بين العراق والشام[٢٧].

*** هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم والفتح الاسلامي**

كانت هجرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم آخر الهجرات العربية التي صنعت الحضارات المتعاقبة، فقد انقرضت الاقوام والحضارات التي أقامها المهاجرون من الجزيرة العربية منذ العصور السحيقة في القدم لأسباب مختلفة من حروب، وعوامل طبيعية، وغزو خارجي، أو ذوبان في اقوام أخرين. بينما نجد الهجرة التي حدثت عام (٦٣٥م) والتي كان في طلائعها المسلمون الاوائل من اهل مكة نحو المدينة المنورة، حيث اسسوا دولة قوية استطاعت ان تنتشر في سائر انحاء الجزيرة العربية في حياة الرسول.

وبعد وفاته استطاع خلفاؤه ان ينطلقوا الى كافة الجهات شرقاً وشمالا وغرباً، فيفتحوا ثلاث قارات كانت معروفة في تلك الايام (آسيا ـ أوروبا ـ افريقيا) وخلال ثمانين سنة فقط، استطاعت هذه الدولة العربية الاسلامية ان تصل جيوشها ان تصل الى جنوبي الصين والهند، والى ابواب الدولة البيزنطية في حصار القسطنطينية، والى ابواب باريس بعد فتح الاندلس، والى اواسط افريقيا، واصبح البحر العربي والبحر الاحمر (بحر القلزم) والبحر الابيض المتوسط بحاراً عربية لا ينافسهم فيها منافس.

* المراجع

١ ـ الحضارة العربية الاسلامية: د. شوقي ابو خليل ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ١٩٩٤

٢ ـ المسند: احمد بن حنبل ـ دار الفكر ـ بيروت.

٣ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار الحديث ـ القاهرة.

٤ ـ تسلسل الهجرات العربية الى الهلال الخصيب وما حوله. محاضرة للدكتور حسن حدة ألقاها في المركز الثقافي بدير الزور مساء الاثنين ١٩٩٦/١/٨.

٥ ـ اطلس التاريخ العربي والاسلامي: د. شوقي ابو خليل ـ دار الفكر ـ دمشق

٦ ـ الخط العربي: د. عفيف بهنسي ـ دار الفكر ـ دمشق ط١ ١٩٨٤م.

٧ ـ الاطلس التاريخي: عدنان العطار ـ دار سعد الدين ـ دمشق ـ ط٣ ١٩٩٢م.

٨ ـ شريعة حمورابي واصل التشريع في الشرق القديم. مجموعة مؤلفين، دار علاء الدين، دمشق. الطبعة الثانية، ١٩٩٣.

٩ ـ تاريخ الامم والملوك: الطبري ـ دار سويدان ـ بيروت.

١٠ ـ الكامل في التاريخ: ابن الاثير الجزري ـ دار صادر ـ بيروت.
١١ ـ دائرة المعارف الاسلامية: المستشرقون ـ كتاب الشعب ـ القاهرة.
١٢ ـ البداية والنهاية: ابن كثير ـ دار الكتب العلمية ـ طبعة ثالثة ـ بيروت.

* الهوامش

١ـ الآية ١٥ من سورة سبأ
٢ـ الآية ٣٢ من سورة الكهف.
٣ـ الآية ٥٧ من سورة الشعراء
٤ ـ الحضارة العربية الاسلامية (ص١٣٦)
٥ ـ رواه الإمام احمد في مسنده (٢/٣٧٠) والحاكم في مستدركه
٦ـ تسلسل الهجرات العربية (محاضرة الدكتور حسن حدة)
٧ـ يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن مادة (عدن)
٨ـ تسلسل الهجرات العربية (ص٤-٧) بتصرف
٩ـ أطلس التاريخ العربي والاسلامي(ص٤)
١٠ـ الخط العربي للدكتور عفيف بهنسي (ص٢٣)
١١ـ الخط العربي لبهنسي (ص٢٣)
١٢ـ الخط العربي لبهنسي (ص١٧-١٩)
١٣ـ أطلس التاريخ (ص٥-١٤) والاطلس التاريخي (ص٣١)
١٤ـ الحضارة العربية الاسلامية (ص١٤١).
١٥ـ تسلسل الهجرات (ص١٥)
١٦ـ اطلس التاريخ (ص٥-١٧) والاطلس التاريخي (ص٣٣) والحضارة العربية الاسلامية (ص١٥١).
١٧ـ تسلسل الهجرات العربية (ص١٥).
١٨ ـ الحضارة العربية الاسلامية (ص١٥١).
١٩ ـ الحضارة العربية الاسلامية (ص١٣٦).
٢٠ ـ الحضارة العربية الاسلامية للدكتور شوقي ابو خليل.
٢١ ـ شريعة حمورابي (ص١٣٣).
٢٢ ـ تاريخ الامم والملوك (١/٢٠٥) دار سويدان ـ بيروت.
٢٣ ـ الكامل في التاريخ (١/٧٨) دار صادر ـ بيروت.
٢٤ ـ الحضارة العربية الاسلامية (ص١١٣).
٢٥ ـ عصر الدولة القديمة (٣٤٠٠-٢٠٦٥ق.م) بدأ من الاسرة الاولى حتى العاشرة.

عصر الدولة الوسطى (٢٠٦٥ ـ ١٥٨٠ق.م) من الاسرة الحادية عشرة الى السابعة عشرة.

عصر الدولة الحديثة (١٥٨٠-١٠٨٥ق.م) من الاسرة الثامنة عشرة الى الاسرة العشرين

عصر الضعف والانحلال (١٠٨٥-٦٦٣ق.م) من الاسرة الحادية والعشرين الى الخامسة والعشرين.

عصر النهضة المؤقتة (٦٦٣-٥٢٥ق.م) الاسرة السادسة والعشرون وفيه خرج الاشوريون من مصر.

العصر المتأخر (عصر الشيخوخة) (٥٢٥-٣٣٢ق.م) من الاسرة السابعة والعشرين حتى الاسرة الحادية والثلاثين) الحضارة العربية الاسلامية (ص١١٣-١١٥)

٢٦ ـ قصة الحضارة (١/٧٣) والحضارة العربية الاسلامية (ص١١٩-١٢٠)
٢٧ ـ البحرين: هي ضفاف اعلى الخليج العربي الغربية (حالياً الكويت والإحساء ودولة قطر).
٢٨ ـ أطلس التاريخ العربي الاسلامي (ص١٣).
٢٩ ـ اطلس التاريخ العربي الاسلامي (ص٥-٦-١٢-٤١).
٣٠ ـ أطلس التاريخ العربي الاسلامي (ص٥)، الاطلس التاريخي (ص٣٠).
٣١ ـ شريعة حمورابي (ص٩).
٣٢ـ أطلس التاريخ العربي والاسلامي (ص٥-٦).
٣٤ ـ اطلس التاريخ العربي الاسلامي (ص٥).
٣٣ ـ الاطلس التاريخي (ص٣١) واطلس التاريخ العربي والاسلامي.
٣٥ ـ اطلس التاريخ العربي الاسلامي (ص٥-٢٥)
٣٦ ـ راجع اطلس التاريخ العربي الاسلامي(ص٥).
٣٧ ـ دائرة المعارف الاسلامية (٩/٣٨٩) والبداية والنهاية في التاريخ (٢/١٧٩).

الأديبة قمر كيلاني تقول:

كيف يعرفنا العالم.. ولا نعرف بعضنا؟

* الأكاديميون المصادرون خطر على التراث.
* الشعر الشعبي أدب أصيل ومخزون ذو دلالة.

اجرى الحوار:
تميم الحكيم

هي واحدة من اصحاب الريادات النسائية في القصة السورية.. وهي عضو مؤسس في (اتحاد كتاب العرب بدمشق)

لها أكثر من ٢٥ كتاباً من قصة ورواية ودراسة وتمثيلية.. اضافة الى المشاركة المتواصلة في الصحف والمجلات والملتقيات الادبية.

انها الكاتبة الاديبة (قمر كيلاني).. القمر الذي ما زال مشرقاً منذ اربعين سنة .. يرسل أشعته الفضية على القارىء كلمة نظيفة.. واسلوباً جميلاً.. وفكرة بناءة.. وموقفاً صادقاً.. ورمزاً موحياً.. وحدثاً ممتعاً..

هذه الاديبة الناقدة استضافها الملحق في هذا الحوار.. وكانت البداية..

وظيفة الأدب

** (قمر كيلاني) عايشت الادب منذ اربعين عاماً، وقدمت له الشيء الكثير.. فماذا ترى في الأدب؟ وما وظيفته؟

* الأدب نسج الحياة.. نسيج الحياة.. مهما حاول الانسان ان يفصل الكائن البشري بين جسم وروح.. فالامر مستحيل.. والأدب موجود منذ خلق الانسان على الارض.. قصة الخلق نفسها قصة أدم وحواء هي أدب.. الأساطير، القصص القديمة، الحكايات الشعبية، النوادر، السوالف.. كل ما أتانا عبر الزمان من قصص الصيادين في الغابات والقصص التي تحكي تصرف الانسان البدائي في مواجهة المحيط هو أدب.. فلا بد أن يكون لهذا الأدب وظيفة..

انها وظيفة المعنى للاشياء.. وظيفة الروح للزهرة.. اللون الاخضر للعشب.. النسغ للشجرة.. فلا يمكن ان نفصل هذه

الوظيفة عن تطلعات الانسان او متطلبات الانسان.. صحيح ان وظيفة الادب تختلف بين عصر واخر.. كانت وظيفته مثلا عندنا في الأدب العربي تتجلى في المقامات.. في فترة اخرى تتجلى في الحكواني الذي يعيد سيرة عنترة وسيرة بني هلال والزير سالم وسيف بن ذي يزن.. الآن اصبحت وظيفة الأدب مرنة.. عجينة مرنة تبث الينا عبر الشاشات في المسلسلات، أو عبر الاذاعة في التمثيليات، أو عبر السينما التي استقطبت بعض الاعمال الادبية.

اذا هناك وظيفة معينة لا بد ان تصل الى الانسان وان اختلفت السبل.. ويظل الشعر هو أرقى هذه الوسائل للوصول الى الانسان.

أدب أصيل

** بمعنى هذا فالأدب يتجاوز المدوّن المكتوب؟

* أنا لا أقول ان الادب يتجلى فقط في الكلمة المطبوعة.. يتجلى ايضاً في الحكاية.. يتجلى في الزجل.. يتجلى في صرخة يصرخها انسان متألم وهو في الصحراء كأنما يناجي نفسه.

وأشير هنا الى الشعر الشعبي وما يتحلى به من أساليب فنية وروح جميلة.. فهو أدب أصيل ومخزون ذو دلالة يجب ان يصل الى كل عربي..

كل هذا أنا اعتبره أدباً.. ووظيفة الادب مقدسة وجليلة ومهمة ولا غنى للانسان عنها..

أديب محبط

** ما تقويمك للأدب العربي المعاصر؟ وهل استطاع الأديب العربي ان يقوم بدوره المنوط به؟

* الأديب العربي عموماً محبط ومنهزم من الداخل.. لعل ذلك بسبب الهزائم السياسية التي احبطته وأنامت أبداعاته وجعلتها في سبات.. ولكن هذا لا يمنع ان الأديب العربي قدم شيئاً ماخلال الربع قرن الاخير..

بعد هزيمة حزيران الاديب العربي لم ينفصل عن مجتمعه.. بتخلفه بالازمات التي مر بها، بالآثار التي تركها الاستعمار، وبالحركات الوطنية التي نبضت هنا وهناك..

ونجد عندنا ثروة في الادب حول قضية فلسطين لايطالها أي أدب في العالم وخاصة في الشعر.. وعندنا الأدب المغاربي في القصة والرواية المسرحية.. وعندنا الادب السعودي والادب السوري والادب المصري وكلها تنبع من روح وطنية وتعكس التزاما مسؤولاً من الأدباء العرب.

تفاؤل

** إجابتك تضعنا في المنطقة المحايدة بين التفاؤل والتشاؤم؟

* انا متفائلة.. وأرى ان الثغرة عندنا أننا لم نبني أدبنا الحديث على نقد جيد يربط بين النقد القديم والنقد المعاصر.. ولم نبلور اتجاهات نقدية جيدة تبرز ما هو الغث وما هو السمين في هذا الأدب.

اصداؤنا لا تصل

** وهل هذا سبب غيابنا عن ساحة الأدب العالمي؟

* هذا واحد من الأسباب.. اضافة

الى ان الاعلام مقصر في التعريف بالمبدعين من الكتاب العرب كما اننا كعرب مرتبكون مضطربون ننغلق في كل قطر على انفسنا ولا ننفتح على مستوى الساحة العربية.. فكيف بالعالم ان يتعرف علينا؟!!

ان اصداء ادبنا في العالم لا تصل.. ولو وصلت لاستحق الكثير من أدبائنا جوائز عالمية.

تراث مستهدف

** يتعرض التراث العربي لحملات شعواء.. وبعضها من أبنائه لماذا؟ ولمصلحة من؟

* لو عدنا الى نهايات القرن الماضي وبدايات القرن الحالي لوجدنا ان التراث عموما لم يظهر للنور الا على يد المستشرقين.. ولا اريد ان اخوض في هذا الحديث فحديث الاستشراق يطول والعلاقة المشبوهة التي لوحظت فيما بعد على المستشرقين وما دسوه على التراث العربي اصبح معروفاً.. قليل منهم كان مخلصاً وموضوعيا في تناوله للتراث.. انما اريد ان أقول ان هذه الافكار التي تسربت من المستشرقين ووصلت الى الذين درسوا على أيديهم من الاكاديميين ومن الباحثين ومن الذين تشبعوا بالثقافة الفرانكفونية والانكلوسكسونية والجرمانية وغيرها.. فهؤلاء بحسن نية أو بسوء نية.. لا أدري.. تناولوا التراث بهذا الاسلوب.. فهم سلفا مصادرون من حيث اسلوب تفكيرهم لانهم أما درسوا التراث عن طريق الاستشراق.. واما درسوا عن طريق اساتذة وفي جامعات لها هذه الاساليب.

ولكن هناك ما هو اخطر وهي تلك الدعوات السياسية التي تتلبس بعض الباحثين والدارسين فيتناولون التراث تناولا يخدم هذه الدعوات او هذه الايديولوجيات أو هذه العقائد .. وهنا يكمن الخطر..

تراثنا هو كنزنا.. وهو شخصيتنا وهو هويتنا.. ويجب ان نعود الى التراث فننخله نخلاً، ونقوّمه، ونبني على أساسه ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا.

غربة اللغة جرح ينزف

** لقد اضحت اللغة العربية غريبة حتى على لسان ابنائها وصرنا نجد الاخطاء حتى على لسان الادباء والمختصين باللغة العربية.. لماذا وما سبيل الخلاص؟

* لا تفتح لي جرحاً يزداد نزيفاً يوما بعد يوم.. أنا أحب اللغة العربية جداً لا لأنني مختصة بها.. وانما لأن لغتنا لغة ادبية ثرية جميلة، وهي اساس في الهوية.. أساس في الشخصية.

أنا تعلمت اللغة من ينابيعها.. من القرآن الكريم في الدرجة الاولى.. لا أحد يتقن اللغة العربية بدون الاكثار من قراءة القرآن الكريم وحفظه.. كما يجب العودة الى الينابيع الأصلية في النصوص العربية التي تستقيم معها اللغة.

ثم إن هناك خللاً كبيراً في اللغة سيؤدي بها الى مزيد من التدهور وهو هذه الازدواجية بين العامية وبين الفصحى.. اقول عامية واقول عاميات، واقول لهجة وأقول لهجات.. وهناك من يشجع هذه العاميات ويدرسها في النصوص الادبية بحجة انها من المعاصرة وانها من الكلمات التي يمكن استخدامها بلا حرج.

والحلول في رأيي كثيرة.. أولها أن

نفرض على الأقل في مدارسنا استخدام اللغة العربية كلغة خطاب وتعليم بين الطالب والتلميذ.. لقد درست في مدارس اجنبية ايام الاحتلال الفرنسي لسوريا.. واذكر انهم كانوا يحظرون علينا استعمال اللغة العربية.. فلماذا لا نفرض هذه القيود على ابنائنا كمقوم من أهم مقومات أمتنا.. وكلغة لقرآننا.

ولأن الضعف اللغوي تسرب الى الجامعات ومنها الى الكتّاب والأدباء، وجب علينا ان نقوم بحملة مشددة وقاسية لتسويد اللغة العربية.. يجب ان نعمل بمختلف القنوات والوسائل لتكون الفصحى هي السائدة.. أنا لا أقول اللغة الاكاديمية التقليدية المقعرة الموجودة في بعض الكتب القديمة.. اقول اللغة المبسطة والسهلة والتي تلائم العصر..

واللغة هي اداة تفكير اكثر منها اداة تعبير .. فتنقية الفكر العربي من الهجين ومن الدخيل ومن المذاهب والتيارات المشبوهة ينعكس بالتالي على اللغة العربية.. لقد صادفت كتاباً في المغرب العربي والجزائر يتقنون اللغة العربية ولا يخطئون ابداً رغم انهم درسوا في فرنسا ونالوا شهاداتهم منها.. لماذا لأن واحدهم آمن باللغة العربية وأحبها.. بينما غيره من الكتاب العرب يكتبون في الموضوعات العربية وبلغة أجنبية!! فالقضية مبدأ وشعار للأديب ولغير الأديب في الوقت نفسه.

نصيحة استاذ

** (قمر كيلاني).. أديبة استاذة ذات تجربة ثرية وتاريخ حافل.. بماذا تنصح الأدباء الناشئين؟

* انصح الادباء الناشئة بعدم التسرع.. وعدم توخي قطف الثمار قبل نضجها.. ان يكتب احدهم ويمزق.. ويمزق ثم يخرج لنور ما كتبه حين يراه مناسباً.

نحن مررنا بهذه التجارب.. وكم مزقنا من الاوراق قبل ان نتعجل الظهور ورؤية اسمائنا على الورق.

كما يجب ان تكون الرؤية واضحة امام الكاتب.. ماذا يريد ان يقول للعالم عبر هذه الكلمات.. قصة.. رواية.. شعر.. فالمقولات الواضحة هي التي تصل الى الآخرين..

ثم ان الثقافة ضرورية جداً.. الموهبة وحدها لا تكفي.. هناك معادلة بين الموهبة وبين الثقافة .. كل منهما يرفد الآخر.. فرغبة المرء ان يصبح نجاراً لا تكفي بل لابد أن يملك أدوات الصنعة.. وكل فن له أدوات .. ولا بد أن يملك الكاتب الناشىء ادوات هذه الحرفة كما يقول (الجاحظ).

وصبرا.. صبرا لكل كاتب ناشىء.. ومن سار على الدرب وصل.

تعاريف

** في الختام.. بماذا تعرفين هذه الكلمات: الضاد ـ الثقافة ـ ذات الاديب ـ غربة الاديب ـ الضمير الحي ـ الطفولة؟

* الضاد: هي لغتي التي اعتز بها..

* الثقافة: هي شمولية المعرفة وليس اختصاصها.

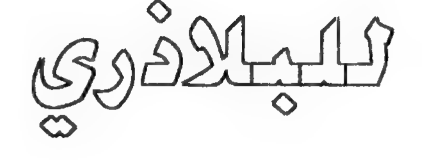
* ذات الاديب: الكائن الانساني المحير الذي هو العالم المخبأ في قارورة (الأنا).

* غربة الاديب: وضع قائم.. فالاديب دائماً غريب.. وفي اكثر من غربة... يعاني غربة مع ذاته.. وغربة في العالم.

* الضمير الحي حين يصغي الانسان الى صوت السماء في اعماقه.

* الطفولة: هي الصورة الصحيحة لما سيشوه فيما بعد.

أنساب الأشراف



نص المقال الذي كتبه العلامة الكبير حمد الجاسر في مجلة العرب تعليقاً على كتاب العلامة محمود الفردوس العظم بعد صدور الجزء الثاني من تاريخ أنساب الأشراف للبلاذري:

في هذه الايام نشر الصديق الاستاذ محمود الفردوس العظم جزءاً من هذا الكتاب ووضع عنوانه «أنساب الأشراف علي وبنوه» وقال في مقدمته: (إنه سيبدأ بالأجزاء التي لم تصدر، ثم يعود الى ما صدر فيعيد تحقيقه، وإنه اعتمد نسخة مخطوطة المكتبة العامة المغربية لانها الأصح والأضبط من نسخة مخطوطة استنبول) وابتدأ من (أمر السقيفة) حتى انتهى الى (وفاة ابن الحنفية) ووقع ما نشر في المخطوطة الدمشقية من ص ١١٤ الى ص ٢١٠ حيث وقف عند (أمر العباس بن عبد المطلب) حيث ابتدأ الجزء الذي حققه الدكتور الدوري.

والاستاذ محمود ذو عناية بالغة بكتب النسب، فقد حقق كتابي ابن الكلبي «الجمهرة» و«النسب الكبير» وهاهو يتجه الى نشر هذا الكتاب فجاءت نشرته هذه في مجلد ضخم بلغت صفحاته ٦٧٠ صفحة بطباعة حسنة صدر عن (دار اليقظة العربية) في دمشق وليس في المنشورة ما يوضح تاريخ النشر ويبدو انه العام الماضي حيث اكرمني بنسخة مؤرخة في ١٩٩٦/١٢/٢٩م، ولقد احسن بي الظن حين كتب في الاهداء: (آملاً ان ترسل لي برأيك في الكتاب، مع إهدائي أخطائي إن وجدت، ويكون لك الفضل لأتلافاها في المستقبل).

وقد وصلت إليَّ النسخة أثناء إبلالي من مرض كانت وطأته اشتدت عليَّ فترة واتفق هذا مع حلول عيد الفطر المبارك، ولكنني رأيت من حق الاستاذ الكريم ان اكون عند حسن ظنِّه، وكانت لديَّ مصورة كاملة من مخطوطة (خزانة الرباط) التي

تعد أوفى نسخة معروفة، وعنها نُقلت نسخ لأكثر مانشر من اجزاء الكتاب التي حققها الاساتذة الدكتور محمد حميد الله والدكتور إحسان عباس والشيخ محمد باقر المحمودي والدكتور إحسان صدقي العمد.

وهذه النسخة التي تعد من أوثق نسخ الكتاب إتقاناً وضبطاً كما ظهر لي من مصورتها قابلت مطبوعة الصديق الاستاذ المظم عليها من أولها الى اخرها، فاتضح لي أن اعتماد هذه المطبوعة عليها لم يكن تاماً يتضح هذا:

١ ـ وقوع الاختلاف في كلمات اتضح لي ان الصواب مافي المخطوطة.

٢ ـ وجود تعليقات في الهوامش في ايضاح بعض الكلمات فيها اشارات تدل على انها منقولة من اصل الكتاب لم ترد في المطبوعة.

٣ ـ تعليقات تدل على مقابلة تلك المخطوطة بنسخ اخرى.

وكل هذه التعليقات كان ممن يجب إثباته في أية مطبوعة تعتمد على هذه المخطوطة. ومما لاحظته على مطبوعة الاستاذ محمود الفردوس:

١ ـ وضع عنوانها «الجزء الثاني علي وبنوه» وهي تحوي معلومات اخرى من اول هذه المطبوعة الى الصفحة الـ(٨٥) وكان الاولى بعد ذكر الجزء الثاني ذكر (امر السقيفة ـ الزبير بن عبد المطلب وابناؤه ـ أبو طالب وأبناؤه ـ علي بن أبي طالب وبنوه).

٢ ـ كان يحسن بعد ذكر اسم الكتاب ايراد اسم مؤلفه كاملاً، او التعريف به في المقدمة، اذ ليس كل مطلع على هذه المطبوعة يعرف البلاذري.

٣ ـ لم أر ما يدعو لإلحاق مقالات الاستاذين جواد علي ومحمود شاكر في الكتاب، واذا كان لا بد من ذكرهما فيكتفي بإشارة موجزة عند المناسبةالداعية لمحتويات تلك المقالات.

٤ ـ إطالة بعض الحواشي المتعلقة بالانساب، وكان الاولى الاشارة الى المصادر دون ذكر النصوص كاملة.

أما ما اتضح لي أثناء المقابلة فسأتحدث عنه بتفصيل في موضع اخر.

وهذا لا يمنعني من الاعتراف بفضل الاستاذ محمود على ما بذل من جهد لا يُدرِك قدرَه الا من عانى مثل ما عانى، من مشقة ودأب، ومواصلة عمل، وتتبع مراجع متعددة، مما يتضح لمطالع مطبوعته هذه أثره واضحاً في كل صفحة من صفحاته، كما يتضح له من العمل المتميز الذي أبرزه الأستاذ في نشره لكتابي ابن الكلبي، حيث عمد الى نسخهما بخطه الحسن الكامل الشكل، ثم طبعهما بعد تحقيقهما مصوّرين، لكي يسلما من أخطاء الطبع التي قل أن يسلم منها اي كتاب مطبوع، ما مع أضاف اليهما من تعليقات وشروح وافية، وفهارس كاملة.

وها هو «وفقه الله ـ عازم على الاستمرار في نشر هذا الكتاب النفيس، الذي حاولتْ جهات اخرى ذات حَوْلٍ وطَول، ومع ذلك لم تُحقّق ما ارادت، فأعانه الله وقوّاه.

عرض مختصر عن

حياة الشيخ الخضر بن الحسين

بقلم:
محمد بلقاسم خمار

طولقة، هذه المدينة الاصيلة في حضارتها، العريقة في تاريخها، الجميلة بظلالها، ومياهها، وثمارها، المتمسكة بايمانها وقيمها وتقاليدها السامية.. طولقة هذه الواحة الوارفة الرائعة كانت ولم تزل موئلا للعلم، وملتقى للمآثر، وجامعة للاسلام ومنبتا للرجال المتفوقين فكرا، وتقى، سلوكا واخلاقا.. وصدق من قال: لا تنبت الارض الطيبة الا طيبا.. وبالفعل فان من مثل هذه الارض الطيبة، كانت الجزائر تبني تاريخها الثقافي المجيد، وتعلي راية فخرها بين الامم والشعوب، وتفيض عبقريات، ورسالات، وجهادا لتغمر اشقائها وجيرانها اصلاحا وخيراً، ولتعمر العالم امنا وحباً وسلاما.

في هذه الارض المباركة انطلقت منابع العلم والتقى، ومن هذه الارض المباركة تزودت اجيال واجيال بكنوز معارفها، وسلاح حصانتها، ورسوخ مبادئها، ومن هذه الارض المباركة اضاءت شموس نيّرة في اهم العواصم العربية والاسلامية، كتونس، القاهرة، دمشق واسطنبول. ومازالت اشعتهم ساطعة دافئة قوية حتى اليوم.

لقد كانت الروابط الوحدوية التي تجمع بين ابناء المغرب العربي منذ القدم روابط قوية متينة، جمعتها القرابة والنسب ولحمتها العقيدة واللغة، وصقلتها التجارب التاريخية والآلام والآمال المشتركة، واكدتها الارض والجوار، فلم يكن هناك فرق بين مراكشي او جزائري او تونسي او ليبي. كلهم في مشاعرهم، ومصائرهم سواء، رغم ما طرأ من اختلاف عليهم في انظمة الحكم التي سادت اقطارهم خاصة منذ احتلال فرنسا للجزائر في بداية العقد الثالث للقرن التاسع.

ودعما لذلك ارى من المهم ان اثبت ما قاله الامام الشيخ عبد الحميد بن

باديس، عندما تكلم عن وحدة ابناء المغرب العربي، قال رحمه الله: حيثما توجهنا الى ناحية من نواحي التاريخ: وجدنا هذا المغرب العربي: طرابلس، تونس، الجزائر، مراكش، يرتبط بروابط متينة روحية ومادية، تتجلى في وحدته للعيان، ولسنا نريد هنا ان نتحدث عن التاريخ القديم، وانما نريد ان نعرض صفحة، من التاريخ الحديث الجاري».

ويذكر رائد النهضة الجزائرية الامام بن باديس كيف ان ابناء المشرق العربي ينسون او يتجاهلون ابناء المغرب العربي مع اننا دائماً نمدهم بخيرة ما عندنا من رجال السيف والقلم ـ كالامير عبد القادر الجزائري وابنائه الشهداء من اجل سورية واحفادها مثل الامير خالد، ويسترسل في عرض سماء بعض الاعلام، كسليمان باشا الباروني الطرابلسي، والشيخ السنوسي الطرابلسي الجزائري الاصل، والشيخ طاهر الجزائري الاصل، والشيخ عبد العزيز الثعالبي زعيم تونس، الجزائري الاصل والشيخ الخضر حسين التونسي الجزائري الاصل وغيرهم من اقطاب المعرفة والعلم.

من المعلوم ان الكثير من ابناء الجزائر كانوا يتوجهون الى القرويين في المغرب او جامع الزيتونة في تونس او الى الجامع الازهر في القاهرة، لطلب العلم، والاستزادة من المعارف، خاصة بعد ان دب الضعف في كتاب الحكم العثماني، واستعمرت الجزائر من طرف فرنسا، مما اثر في مسيرة نهضتها العلمية التي حوربت بشتى الوسائل والاساليب.

ومن المعلوم ايضا ان الجزائر قد مدّت المغرب والمشرق العربيين بالكثير الكثير من العباقرة والعلماء، اولئك الذي حوصروا في آرائهم وعقائدهم وحرموا من أداء اماناتهم العلمية وواجباتهم الاسلامية، ومسوا في كرامتهم وحرياتهم، فاتجهوا الى ديارهم الاخرى في المغرب او المشرق، يدافعون عن الشريعة، ويدعون الى الاصلاح وينشرون العلم، ويجاهدون في سبيل الله، من اجل وحدة العرب والمسلمين، لا فرق بين قطر او قطر، ولا بين مسلم ومسلم، الا بالتقوى والعمل الصالح.

ومن بين هؤلاء الجزائريين المهاجرين الشيخ مصطفى بن عزوز، جد الشيخ الخضر لامه، ثم الشيخ الحسين بن علي بن عمر والد الشيخ الخضر، وقد كان من مريدي الشيخ مصطفى بن عزوز، حيث التحق بالشيخ ابن عزوز الى بلدة نفطة في منطقة الجريد التونسي، وتزوج من ابنته والدة الشيخ الخضر، وقد اسس الشيخ مصطفى بن عزوز البرجي في نفطة عندما هاجر اليها مع عدد كبير من اتباعه سنة ١٨٣٧م، أسس زاويته المشهورة، المشتملة على عدد كبير من المساكن لايواء الواردين عليه من كل صقع.. واحدث بها مدرسته الحافلة وأنشأ بها بيوتا لسكنى المنقطعين لقراءة القرآن، وتعلم العلم، وحشر لها العلماء والاعلام من كل جهة، ليدرسوا بها فنون العلم على اختلاف مشاربها[1]..

ويبدوا ان زاوية بن عزوز في نفطة كانت فرعا من الزوايا الكبرى في طولقة والبرج والتي تنتسب الى الطريقة الرحمانية.. وكانت زاوية طولقة تعرف عندنا بالزاوية العثمانية وبزاوية سيدي علي بن عمر وقد ملأت شهرتها آفاق العالم الاسلامي، وذلك لما جمعته من علم وعلماء وطلاب ومريدين، وكرم وزهد، وتقى بالاضافة الى مكتبتها العامرة.

وفي هذا الجو العائلي، المفعم بالعبادة، وحب العلم، وبالجلال والهيبة والوفاء ولد الشيخ الخضر بنفطة سنة ١٨٧٣، داخل اسرة متمكنة من تعاليم الشريعة الاسلامية مستنيرة بآدابها، متمسكة بتقاليدها واعرافها السامية،

حيث كان جده لامه الشيخ مصطفى بن عزوز يشغل مكانة القطب فقها وتدينا، ويعتبر شيخا وزعيما كبيرا بين اتباعه ومريديه وكانت والدته بنت الشيخ بن عزوز على جانب كبير من الثقافة والتعليم وقوة الشخصية، وكان خاله الشيخ محمد المكي بن عزوز عالما جليلا متبحرا في اصول الشريعة، واللغة والآداب، وكان والده الشيخ الحسين.

بن علي بن عمر، فقيها تقيا زاهرا، وقد توفي وكان والده الشيخ الخضر مازال صغيرا.

في هذا الجو العائلي المهيب قضى الشيخ الخضر بن الحسين طفولته الاولى، حيث حفظ القرآن الكريم برعاية مؤدبه الخاص الشيخ /اللموشي/ واخذ مبادىء بعض العلوم الفقهية واللغوية والادبية على عدد من العلماء في زاوية جده، وكان في مقدمتهم الشيخ محمد المكي، خال الشيخ الخضر، والذي احب ابن اخته حباً عميقا، وتوسم فيه مستقبلا زاهرا، فمنحه عناية كبرى، واشرف على توجيهه وتعليمه وتثقيفه، وكان الشيخ الخضر يعترف بذلك، ويذكره باعتزاز في اكثر من مناسبة، ومنها قوله: «من اعزها ما تشرفت به من قلم استاذي الذي شبت في طوق تعليمه فكرتي، وتغذيت بلبان معارفه في اول نشاتي، العلامة الهمام القدوة، خالنا الشيخ سيدي محمد المكي بن عزوز».

وفي سنة ١٨٨٦ انتقلت عائلة الشيخ الخضر من نفطة الى تونس للاقامة الدائمة ويبدو ان سبب هذا الانتقال يعود الى رغبة والدة الشيخ الخضر في ان يواصل ابناؤها تعليمهم في جامع الزيتونة الذي كان محطة انتظار طالبي العلم. وان يتعمقوا في معارفهم، وعلومهم خاصة منهم الشيخ الخضر الذي كانت تلوح منه سمات الذكاء والتفوق منذ صغره، والذي بدأ يقول الشعر وهو في الثانية عشر من عمره، وكانت والدته تتوسم فيه العظمة والنجاح، وتغني له وهو صغير قائلة:

يا رب الاكبر
خليلي محمد الاخضر
في الجامع الازهر
يعود يقري وانا حية

* * *

التحق الشيخ الخضر بجامع الزيتونة وهو في الرابعة عشر من عمره أي بعد سنة من استقرار عائلته بتونس.

وبعد احدى عشر سنة من الدرس والجهد، والتحصيل في علوم الدين واللغة والادب، وهي المواد التي كانت متداولة بصفة عامة في جامع الزيتونة لذلك القيت، وبواسطة علماء اجلاء بارزين، من بينهم الشيخ المكي بن عزوز، بعد هذه المدة تحصل الشيخ الخضر على شهادة التطويع، وهي شهادة يستطيع حاملها ان يكون مدرسا في جامع الزيتونة، او ان ينال مناصب علمية او دينية في الوظيف، وقد فضل الشيخ الخضر التفرغ للعلم، واختار ان يكرس حياته للتعليم والتثقيف، والتزود بمختلف المعارف والتعمق فيها، لذلك انخرط في سلك المدرسين بجامع الزيتونة، وفي الوقت نفسه تابع تحصيله بالمطالعة الجادة، وحضور الدروس الهامة الى ان تسامت مكانته، وارتفع شأنه بين اقرانه، واصبح مضرب المثل في اتساع الباع، وقوة الحجة، وبلاغة المنطق ورجاحة العقل، وجاذبية الشخصية التي كان يتميز فيها بهدوء الطبع، والتواضع، والتقي، وبالروح الادبية المرحة.

حصل الشيخ الخضر على التطويع سنة ١٨٩٨، وفي سنة ١٩٠٤، اسس مجلة /السعادة العظمى/ وهي اول مجلة عربية تظهر في تونس، وكان يحرر اغلب مقالاتها وينشر فيها مختلف المواضيع المتعلقة بالشريعة ، والاخلاق واللغة ،

والآداب، والتفسير، والفتوى والرحلات، الى غير ذلك من المواضيع الهادفة الى اصلاح المجتمع، وترقية المسلمين.

وقد توقفت هذه المجلة عن الصدور سنة ١٩٠٥ اي بعد سنة من تأسيسها وذلك لاسباب مادية ولموقفها الحيادي بين صراعات العلماء المحافظين والمصلحين في تونس، حيث انها كانت تعبر عن الاتجاه المعتدل لصاحبها ولم تتورط في الذوبان لصالح فئة ضد اخرى.

وعلى اثر توقف مجلة /السعادة العظمى/ تولى الشيخ الخضر، منصب القضاء ببنزرت، بتأثير صديقه الحميم الشيخ الطاهر بن عاشور، ولكنه استقال بعد شهور من ذلك المنصب، وعاد الى التدريس في جامع الزيتونة، وكان في طليعة الداعين الى اصلاح التعليم ومن اوائل المؤسسين جمعية /تلاميذ جامع الزيتونة سنة ١٩٠٦.

ونشير الى ان الشيخ الخضر كان قد قام برحلتين الى الجزائر سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٠٤ زار فيها الاهل والاقارب، والتقى خلالها بعدد كبير من العلماء الاجلاء خاصة في سوق اهراس، وعين البيضاء، وقسنطينة وباتنة، والجزائر العاصمة، كما سجل ذلك في كتاباته.

وربما يكون الشيخ الخضر قد قام باكثر من رحلتين الى الجزائر خاصة عندما كان صغيرا، ويقيم في منطقة الجريد ولا تفصله مسافة بعيدة من طولقة. كما ان رحلاته من مصر الى سورية كانت اكثر مما سجل وعرف عنها فقد زار دمشق سنة ١٩٥٢، وزارها كذلك سنة ١٩٥٥، وتدخل كل تلك الرحلات في اطار خاص الا وهو زيارة الاهل والاقارب سواء الى طولقة لزيارة الاهل والاقارب او الى دمشق لرؤية اخيه الشيخ زين العابدين وعائلته.

لقد اشتهر الشيخ الخضر بن الحسين خلال تواجده بتونس، وفي مطلع القرن العشرين اشتهر بنشاط جم في مجالات الاصلاح الديني والاجتماعي، والدعوة الى يقظة الشباب وتكتلهم وتشجيعهم على الاخص بمختلف العلوم الحديثة، وممارسة فن الخطابة والجرأة على قول الحق ومواجهة الصعاب.. اشتهر عنه هذا الا ان جانب الخوض في الصراعات السياسية ظل غير واضح الى حد الآن بسبب ما كان يتصف به الشيخ الخضر، ومن هدوء ووقار، ومن تركيز على الجوانب الدينية الاصلاحية والبحوث اللغوية والادبية، غير ان هذا السلوك الظاهري لا ينبغي ان يكون الشيخ الخضر قد قام بانشطة سياسية كثيرة، ولكن باشكال، وصور خفية ومتسترة، نتأكد من ذلك في مكان يتمتع به من حساسية ووعي ووطنية صادقة.. ومن رفضه عضوية المحكمة التونسية الفرنسية، ومن مشاركته الفعالة التنديد بالحملة الاستعمارية الايطالية ضد ليبيا سنة ١٩١١، ودعوة ابناء المغرب العربي لمساعدة اخوانهم الليبيين وكذلك من مضايقة السلطات الاستعمارية الفرنسية، ومناوأة اتباعها مما دعاه الى الخروج من تونس والهجرة الى سورية سنة ١٩١٢.. ونتأكد ايضا من اهتماماته الساسية في ما كان ينشره او يقوله من نثر و شعر، ومن ذلك ما جاء في قصيدته الداعية الى نصرة ليبيا حيث يقول فيها:

ردوا على مجدنا الذكر الذي نهبا
يكفي مضاجعنا نوم دها حقبا
ولا تعود الى شعب مجادته
الا اذا غامرت هماته الشهبا

* * *

وهي قصيدة عظيمة، منشورة في ديوانه: «خواطر الحياة».

اذن فالشيخ الخضر، بالاضافة الى شخصيته الدينية العلمية الادبية

الغالبة، كان يعيش احداث وطنه السياسية، وكان يسعى باسلوبه الخاص، الى ضرورة التحرر من الاستعمار، بمحاربته والتصدي له.

ولعلى الدوافع التي أدت فخروج والده وجده من طولقة الى الجريد ثم الى تونس، هي نفس الدوافع التي ادت بهجرة خاله واستاذه الشيخ محمد المكي بن عزوز الى تركيا، ثم بهجرة والدته الفاضلة مع اخوته الى دمشق بسورية سنة ١٩١١ ثم التحاق الشيخ الخضر بهم سنة ١٩١٢ وهي دوافع لا تخرج عن مفهوم الابتعاد من مضايقة المستعمر الفرنسي والبحث عن مناخ تتوفر فيه حرية طلب العلم وحرية الحركة في ميادينه بكرامة واعتزاز.

كان للشيخ الخضر اربعة اخوة وهم الشيخ الجنيدي وهو اكبرهم وقد توفي في الجزائر/ ويأتي بعده الشيخ الخضر والشيخ العروسي والشيخ المكي، والشيخ زين العابدين ولهم ثلاث اخوات عن ميمونة وزبيدة وفاطمة الزهراء، ومن المعروف ان كل اشقائه كانوا من العلماء الرجال الأفاضل ولهم ما ثر قيمة في مجالات التدريس والتاليف.

وعندما هاجرت والدة الشيخ الخضر بابنائها الى دمشق كان في استقبالهم عمنا الشيخ قدور خمار الذي كان قد سبقهم بالهجرة الى تلك الديار سنة ١٩٠٩ وكانت تربطه بعائلة الشيخ الحسين بن علي بن عمر علاقة قرابة ونسب، حيث كانت شقيقته متزوجة من احد افراد عائلتهم بطولقة ثم بعد ذلك تزوج عمنا من شقيقة الشيخ الخضر بنت الشيخ العروسي شقيق الشيخ الخضر.

نشير الى الشيخ الخضر عندما ألتحق بعائلته في دمشق قد عاد الى تونس بعد خمسة اشهر تقريباً امضاها في عدة رحلات الى سورية ولبنان وتركيا، وقام خلالها باتصالات كثيرة وانشطة ثقافية هامة ولكنه عندما عاد الى تونس لم يطلب له المقام للمضايقات والتحرشات الاستعمارية التي وجدها، بالاضافة الى فراغ الجو العائلي الذي احس به فعاد الى سورية بعد شهرين فقط من مكوثه، واستقر بها، بعد ان ترك زوجته التونسية التي رفض اهلها مرافقتها له ، وتزوج من دمشق، واستقر بها.

وقد لقى الشيخ الخضر في سورية كل تكريم واجلال وتولى التدريس بالمدرسة السلطانية التي درس بها قبله عدد كبير من العلماء، من بينهم الشيخ الامام محمد عبده، كما كان يلقى المحاضرات في الجامع الاموي وغيره من الاماكن المشهورة وكان يلتف حوله عدد كبير من الشخصيات العلمية والسياسية البارزة وفي طليعتهم ابناء الجالية الجزائرية في سورية، وابناء واحفاد الامير عبد القادر الجزائري وذلك لطيب معشره وارتفاع مكانته العلمية والعائلية ولشهرته الواسعة التي كانت تعم البلاد العربية والاسلامية، خاصة بعد انتشار مؤلفاته ومجلة /السعادة العظمى/ وكتب /الدعوة الى الاصلاح/ والحرية في الاسلام/ وغيرهما.

كان الشيخ من المؤيدين للخلافة الاسلامية المؤمنين بوحدة المسلمين تحت راية واحدة ولكنه خلال تواجده في سورية وفي بداية الحرب العالمية الاولى كان لا يخفي المه وحسرته امام مظاهر الضعف والانحلال التي كان يراها تدب في كيان الدولة العثمانية لذلك عندما قام الوطنيون السوريون خلال الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٦ ضد نظام الحكم العثماني قام القائد التركي السفاح جمال باشا بارتكاب مجزرته المشهورة في دمشق ضد رجال العلم والسياسة فاعدمهم شنقا واتهم الشيخ الخضر بتعاطفه مع الوطنيين السوريين وسجنه لمدة ستة

اشهر، وكاد ان يعدم.

وبعد تبرئته وخروجه من السجن استدعي من طرف الخلافة العثمانية للعمل في وزارة الحربية التركية ككاتب عربي بالاستانة يشرف على المراسلات الواردة والصادرة من مركز الخلافة العثمانية الى البلدان العربية والاسلامية المرتبطة بالدولة العثمانية، ثم ارسله الباب العالي بالاستانة في مهمة سياسية الى المانيا التي كانت تربطها بتركيا علاقة تحالف محورية خلال الحرب العالمية الاولى ورغم الغموض الذي مازال لم يتضح تماماً حول مهملا الشيخ الخضر في المانيا الا انها في الغالب تتعلق بموضوع العرب ولها صلة بقضية تحرير المغرب العربي وزعزعت نظام الحم الفرنسي فيه ونجد في الوثائق ان الشيخ الخضر كان قد اتصل في برلين بالزعيم التونسي محمد باشا حامبه كما يشارك في امضاء التقرير الذي ارسلته اللجنة التونسية الجزائرية للدفاع عن المغرب العربي الى مؤتمر الصلح المنعقد في فرنسا سنة ١٩١٧ تحت عنوان مطالب الشعب الجزائري التونسي.

وعند سقوط الدولة العثمانية في ايدي الحلفاء عاد الشيخ الخضر الى تركيا ثم الى سوريا، وكان يعاني من المين محزنتين سقوط الخلافة العثمانية وموت والدته رحمها الله.

وظل في دمشق يفيض نشاطا وابداعا يكتب ويحاضر ويدرس ويؤلف الكتب ويلتقي باصدقائه في جلسات مسامرة وادب، وفي سنة ١٩١٧ ثم تعيينه كعضو عامل في المجمع العلمي العربي بدمشق، وباختصار فقد كانت السنوات الثمانية التي عاشها في سورية من اسعد مراحل حياته ومن ازخرها نشاطا وحركة وانتاجا.

وتشاء الاقدار ان يظل الاستعمار الفرنسي يتتبع بشبحه الرهيب مسيرة شيخنا حيث احتلت سورية سنة ١٩٢٠ من طرف فرنسا وكان دخولها الى دمشق يحمل كل مخاطر التهديد والوعيد للشيخ الخضر، فما كان منه الا ان يشد رجال السفر ويهاجر الى القاهرة عاصمة مصر.

صادف الشيخ الخضر بعض الصعوبات في مصر خلال المرحلة الاولى لاقامته فيها، ولكنه اعتمد على قوة علمه في شق طريقه بنفسه والتف حوله ابناء المغرب العربي المتواجدين آنذاك بالقاهرة فقام واسس لهم جمعية تعاون جاليات شمال افريقيا، وكان يدرس في الجامع الازهر وينبري في كتاباته بالرد على المعارضين لمبدأ الخلافة الاسلامية كما فعل في كتابة نقض كتاب الاسلام واصول الحكم رد على كتاب الشيخ علي عبد الرزاق، وكذلك فعل مع الدكتور طه حسين في الرد عليه بكتاب نقض كتاب في الشعر الجاهلي ووقعت بينه وبين الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة /المنار/ مشادات كتابية كبيرة واصبح الشيخ في مصر قبله الانظار، وكانت له المكانة السامية حتى لدى الملك فؤادي ملك مصر واستقبله شخصيا ثم قام شيخنا.

مع بعض زملائه بتأسيس جمعية الهداية الاسلامية سنة ١٧٢٨ وهي جمعية لتوحيد كلمة الشباب من اجل خدمة المجتمع والاخلاق والاتجاه الديني الاسلامي الصحيح، كما قامت هذه الجمعية باصدار مجلة تحمل اسمها وهي مجلة الهداية الاسلامية وقد ترأس هيئتها الشيخ الخضر نفسه ثم تاسست بعد ذلك مجلة نور الاسلام الازهرية وقد اعطيت رئاسة تحريرها للشيخ الخضر كما كان يمتاز به من عمق التجربة وسعة الاطلاع، وعظمة المكانة العلمية والاجتماعية في مصر، وكان ذلك سنة ١٩٣٠ وفي سنة ١٩٣٢ عين الشيخ الخضر بمرسوم ملكي عضوا في

[illegible] أول هيئة متخصصة من [illegible] في العالم.

ورغم [illegible] النشاط العلمي والديني والصحفي الذي كان يقوم به الشيخ الخضر يوميا، فان علاقته بابناء المغرب العربي ظلت قائمة ومستمرة وكان يقدم المساعدات والتسهيلات للمناضلين والطلبة الوافدين الى مصر ثم قام اخيرا بتأسيس جبهة الدفاع عن افريقيا الشمالية التي لم ينقطع نشاطها حتى قيام مكتب المغرب العربي بالقاهرة.

وفي سنة ١٩٥٠ اجتاز الشيخ الخضر امتحانا علميا صعبا، وتفوق فيه تفوقا باهرا وابرز بامتياز على درجة الانتساب الى هيئة كبار العلماء وهي هيئة لا يصل اليها الا المتحصلون على اعلى مراتب العلم والثقافة.

وفي سنة ١٩٥٢ اختير العلامة الشيخ الخضر لتولي منصب مشيخة الجامع الازهر فامتنع عن ذلك نظرا لحساسية المهمة وخطورتها، وهو منصب لم يتوله غير مصري من قبل ولكنه قبل به وفد الوزراء الذي٢٣بعد الحاح اصدقا زاره في منزله، وعرض عليه المهمة وبعد تسييره لشؤون جامع الازهر مدة سنتين، قدم استقالته نظرا لكبر سنه واعتلال صحته وقد جاوز عمره الثمانين وقد امضى في التدريس بالازهر اكثر من عشرين سنة وامضى عمره كلمة في الكد والجهد والبحث والتنقيب والحل والترحال، والكتابة والتاليف بحيث لم يمض يوم واحد من عمره الا وكان له فيه ابداع او اشعاع.

وفي يوم الاحد ١٣ من رجب ١٣٧٧هـ انتقل الشيخ محمد الخضر بن الحسين الى جوار ربه عن سن يناهز الخامسة والثمانين سنة امضاها جهادا في سبيل الاسلام والعلم، فرحمه الله، وطيب ثراه وقد دفن بالقارة في مقبرة آل تيمور بوصية منه الى جوار صديقه الاستاذ احمد تيمور باشا الذي كان يكن له كل الود والاخير والوفاء.

وبعد هل توافي قد قدمت صورة واضحة عن حياة الشيخ الخضر بن الحسين..؟ لا اعتقد ذلك.. ومهما فعل الكاتب مثلي لا يستطيع ان يلم بجوانب حياة حافلة بالمآثر لاكثر من نصف قرن ولرجل كرس كل ايامه للجهاد والاجتهاد في مختلف ميادين البلاغة والادب واصول الشريعة والذود عن الاسلام، وعن الوطن بالكلمة والقلم، وبالحجة والحق وبالشجاعة والصراحة وبكل ما اوتي من قوة في الفكر والروح والبدن.

وقد ترك رحمه الله آثارا كثيرة مطبوعة اذكر منها الكتب التالية في اسرار التنزيل /بلاغة القرآن محمد رسول وخاتم النبيين /رسائل الاصلاح/ الشريعة الاسلامية صالحة لكل زمان ومكان /محاضرات اسلامية/ القاديانية والبهائية/ دراسات في الشريعة الاسلامية/ السعادة العظمى/ هدى ونور/ الرحلات/ الدعوة الى الاصلاح/ تراجم الرجال/ تونس وجامع الزيتونة/ دراسات في العربية وتاريخها/ دراسات في اللغة/ الخيال في الشعر العربي/ نقض كتاب في الشعر الجاهلي/ نقض كتاب الاسلام واصول الحكم/ خواطر الحياة/ وهو ديوان شعر.

كما ان للشيخ مخطوطات، واشعار كثيرة مازالت لدى اقاربه او اصدقائه او منشورة هنا وهناك في المجلات والصحف والمراسلات، لم تجمع وتنشر حتى الآن.

واحسن ما اختتم به كلمتي هذه هو الدعوة الى ان يخصص لقاء سنوي للشيخ الخضر بن الحسين يكون على مستوى دولي عربي اسلامي يجمع بين من كانوا على صلة به في مختلف انحاء العالم، او من لهم اهتمام به، وذلك لاعطائه بعض ما يستحق.

من الدراسة والكشف عن شخصيته الفريدة من نوعها والتي نعتز بها ونرجو لها المزيد من التعريف والتكريم.

رهين المحبسين يخرج عن صمته

بقلم:
محمود محمد أسد

أبو العلاء المعري بعد قرون مديدة من الصمت نستطيع ان نخرجه عن صمته، وندخله في عالم الكشف والنقد والتعرية دون رياء ومجاملة. يقف متهكماً وناقداً وشاعراً وتاريخاً وحاضراً. يعيش معنا بأحاسيسه. فهو حاضر لم يشأ ان يتكلم إلا في الوقت المناسب. فها هو في حوار ساخن وممتع فيه الوخز والصراحة والمنطق والتطرف إنه شاعرنا الحكيم. رحب بالفكرة وبأسئلتنا الطويلة والمتنوعة. كانت الاسئلة ذات ثلاثة محاور. يدور المحورالاول حول اسئلة عامة تتناول حياتنا بكلّ جوانبها. وكانت رغبتنا ان يجابَ عنها بأشعار عامة لشعراء مختلفين في الميول والعصر والتكوين والشهرة. والمحور الثاني رغبتنا ان تكون الاجابة على اسئلته من شعر المتنبي الذي احبّه وشرح ديوانه «معجز أحمد» ودافع عنه في مجلس الشريف المرتضى في بغداد. والمحور الاخير خاص بآراء المعري فيتناول حياته وافكاره ومعتقداته فأجاب عليه من أشعاره.

ـ أهلاً بك يا شيخنا الحكيم.

* المحور الأول

لا شكّ أنك على صلة وثيقة ومستمرة مع الشعر العربي قديمه وحديثه. وهذا ما يجعلنا نكثر من الاسئلة. فما عليك الا ان تجيبنا بما يخطر على بالك من أبيات ترى فيها الجواب الشافي لأمراضنا العصرية ونحن نعيش عصر التشتت العربي و التقزّم والانهزام النفسي.

ـ ما رأيك بهذا الطرح؟

ـ على الرحب والسعة. ارجو العون من الله . وارجو الا أكون قاسيا.

ـ للوهلة الاولى يرى المرء انهيار القيم والاخلاق في المجتمعات البشرية ما رأيك؟

ـ وإنما الأمم الاخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

واذكر:

واذا أصيب القوم في أخلاقهم
فأقم عليهم مأتماً وعويلا

*　　*　　*

- إجابة مقنعة وتشخيص للداء والدواء. ولكن ماذا تقول لنا وأنت ترى ازدواجية التفكير والممارسة والادعاءات المبطنة؟

- أخاطبهم بقول ابي الاسود الدؤلي:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عارٌ عليك اذا فعلت عظيم

*　　*　　*

وأدعوهم لسماع وتأمل بيت شاعر الحكمة زهير بن أبي سلمى:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمِ

*　　*　　*

- ماذا تقول لنا عن محاولات السلام الراهنة يا حكيمنا؟

- إن العدوّ وإن أبدى مسالمة
اذا رأى منك يوماً عِزّةً وثبا

*　　*　　*

- واولئك الناس الذين يهتمون بالمظاهر والشكليات على حساب الجوهر ما موقفك منه؟

- اذكرهم بقول الشاعر السموءل:

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكلُّ رداءٍ يرتديه جميلُ

*　　*　　*

ويلحُّ عليّ في هذا المعنى بيتان معبّران:

ليس الجمال بمئزرٍ
فاعلم وإن رُدّيتَ بردا
إنّ الجمال معادنٌ
ومناقبٌ أورثنَ حمدا

*　　*　　*

- توظيف رائع ومفيدٌ لأسئلة ملحة. لا همَّ للناس سوى اصطياد عيوبهم والتقاط هفواتهم فيكثرون من العتاب والخصام. ما رأيك بهذه الامراض؟

- يسعفني في هذا السؤال بشار بن برد:

اذا كنت في كل الامور معاتبا
صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً، أو صِل أخاك فإنّه
مقارف ذنب مرّةً ومجانبه
ومنذا الذي تُرضَى سجاياه كلّها
كفى المرءَ نبلاً أن تُعدَّ معايبه

*　　*　　*

- وما موقفك من المال والابناء والجاه؟

- وما المالُ والأهلونَ إلا ودائعٌ
ولا بدَّ يوماً ان تُردَّ الودائع

*　　*　　*

واذكر ايضاً هذا البيت:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقرُ

*　　*　　*

- اريد ان تخاطب الذين يدعون الامجاد والبطولات وهم غافلون عنها يسكرهم التصفيق؟

- حرامٌ على من يروم انتصاراً
ثيابُ الحرير وحلي الذهب

*　　*　　*

- وهناك من يدعي العلم ويتشدّق وهو جاهل فماذا تقول لنا عنهم؟

- ومن البليّة عذلُ من لا يرعوي
عن غيّهِ وخطابُ من لا يفهم

*　　*　　*

- ارجوك ان تعرّف الحاسد والجبان واللئيمَ؟

اذكر لكم في ذكر اللئيم:

والغنى في يد اللئيم قبيحٌ
قدر قبحِ الكريمِ في الإملاق

*　　*　　*

وفي الحاسد:

فلا تطمعن من حاسد بمودّة
وإن كنت تعطيها له وتقبّلُ

*　　*　　*

واما الجبان:

واذا ما خلا الجبان بأرض
طلب الطعن وحده والنزالا

*　　*　　*

- في الحقيقة حديثك شيّق ولا يملّ. وذاكرتك متوقدة. لكل إنسان حكمة ما

الحكمة التي ترى فيها درساً وعظة؟

- ارى في قول طرفة بن العبد حكمة غنية وعميقة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد

* * *

- يا شيخنا. هل بإمكان المجتمع ان يتطور ويقف على رجليه وهو بين بانٍ وهادم؟

- لا أظن هذا بشكل من الاشكال:

متى يبلغ البنيان يوماً تمامُهُ
اذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

* * *

- لكل انسان مزاج خاص به.. من تحبُ من البشر؟ وأيُ الأماكن المفضّلة؟

وكلُ امرىءٍ يولي الجميلَ مُحبّبٌ
وكلُ مكانٍ ينبتُ العزَّ طيّبُ

* * *

- ارجو الا تصاب بالضجر من كثرة الاسئلة. يخطر على بالي سؤال وأنا أرى الناس يتمسكون بالعادات السيئة فما رأيك بما يجري؟

- أرى رأي الرصافي:

الحرُ من خرق العادات منتهجاً
نهج الصواب ولو ضدَّ الجماعات

* * *

- وفي العالم تفرقة عنصرية وتمييز عرقي بماذا تجيبنا؟

بقول الشاعر الفارس عنترة:

يعيبون لوني بالسواد جهالةً
ولولا سواد الليل ما طلع الفجر

* * *

- لا استطيع اخفاء سروري وانا اسمع اجابتك. وهذا الوطن الغالي. كيف نعبر عن حبّنا له؟

- اجل لاحاجة لدليل وهويّة وطنية.

اسمع أبيات نجيب حداد:

إنَّ حبَّ الأوطان عدلٌ وحلمٌ
وثباتٌ وعزّةٌ ووفاءُ
واصطبارٌ على الزمان وتأليفُ
قلوبٍ وغيرةٌ وإباءُ

وجهادٌ في كلِّ فضلٍ وحريّـ
ـةُ قولٍ وأنفسٌ شمّاءُ

* * *

- وماذا تقول لنا في السياسة والحرب؟

- يلاحقني الرصافي الذي يخاطب دعاة السياسة:

أبني السياسة إن سلكتم بالورى
طُرقَ الرشاد فعلّموا الجهالا
إن جرّب الحربُ الكمالَ لأمةٍ
فالعلم أحرى أن يجرَّ كمالاً

* * *

- هل تشكو الزمان والخلاّن من أمورٍ تعانيها؟

- أجل. ولسانُ حالي شبيهُ بلسان حال أبي فراس الحمداني:

يمضي الزمانُ فما عمدتُ لصاحبٍ
إلا ظفرتُ بصاحبٍ خوّانِ
يا دهرُ خنت مع الأصادق خلّتي
وغدرت بي في جملة الإخوان
إن يمنع الأعداءَ حدُّ صوارمي
لا يمنع الأعداءُ حدّ لساني

* * *

- ما البيت الذي ترى فيه شفاءً وبوحاً وانفجاراً من الاعماق؟

- ما أصدق هذا البيت الذي قاله عنترة:

ولقد شفى نفسي وأبرأ سُقمها
قيلُ الفوارس ويك عنتر أقدمي

* * *

- وماذا تقول للشعوب المناهضة والمنتفضة في وجه اعدائها؟

- بكل فخر واعتزاز أردّدُ معها قول الشابي:

اذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بدّ ان يستجيب القدر

* * *

وقول الشاعر الجزائري ابن تومرت:

الحقّ والرشّاش إن نطقا معاً
عَنَتِ الوجوهُ وخرّت الأصنامُ

* * *

وفي ذاكرتي أبيات لحافظ ابراهيم منها:

كم بغت دولة عليَّ وجارت
ثمَّ زالت وتلك عقبى التحدي
إنما الحقُّ قوةٌ من قوى الديـ
ـان أمضى من كلِّ أبيض هندي

* * *

ـ هل سمعت بالمفارقات الشاسعة بين الجوع والشبع وبين الغنى والفقر؟

ايها الرافلون في حلل الوشـ
ـي يجرُّون للذيولِ افتخارا

* * *

ـ بصراحة. ما رأيك بالواقع العربي المأزوم وماذا تقول لنا واعظاً؟

هلاك الفَرْدِ منشاه توانٍ
وموت الشعبِ منشاه انقسامُ

* * *

ـ الشباب طموح واملٌ ومستقبلُ الامة. ارجو ان توجِّه له كلمة.

واطلبوا المجد على الارض فإن
هي ضاقت فاطلبوه في السماء

* * *

ـ هل تعتقد ان الناس مختلفون في السلوك والعملِ كيف تُصنفُهم؟

والناس باذلُ روحه أو ماله
أو علمه والاخرون فضولُ

* * *

ـ السؤال الاخير في هذا المحور. كيف تخاطب المتخاذلين الجبناء؟

ـ أخاطبهم بقول احمد شوقي. علّهم يتدبّرونه:

ولكلِّ نفسٍ ساعةٌ من لم يمتْ
فيها عَزيزاً مات وهو ذليلُ

* * *

* المحور الثاني

ايها الحكيم الجليل! شدَّنا حديثك واسر افئدتنا ولذلك نتابع اللقاء معك في المحور الثاني الذي اتفقنا عليه. وسوف يكون دليلنا في الاجابة شعر المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

ـ المتنبي عرف طباع الناس واكثر من تصوير طباعهم ونفوسهم.. فالاعتراف بالجميل هل يقر به كل الناس؟

اذا انت اكرمت الكريم ملكته
وإن أنت اكرمت اللئيم تمرّدا

* * *

ـ هل تريد ان يحذف بيت من شعر المتنبي. لانه ترك اثراً وغير مجرى حياته؟

نعم وبحرقة وألم.. لانه تسبب بقتله وهو لم يعط كلَّ ما عنده:

الخيل والليلُ والبيداءُ تعرفني
والسيفُ والرمح والقرطاس والقلم

* * *

ـ المجد أغنية عذبة يردِّدها الكثيرون وينالها القليلون. هل ترسم طريقه لنا؟

لا يدرك المجد إلا سيِّدٌ فطنٌ
لما يشقُّ على السادات فعَّالُ

* * *

وكذلك:

لا تحسب المجد تمراً أنت آكله
لن تبلغ المجد حتى تلعق الصَّبرا

* * *

ـ ماذا يخطر على بالك وأنت تعاني من غياب الحريات وسيطرة التطرف في الآراء؟

الرأي قبل شجاعةِ الشجعان
هو أوّلٌ وهي في المحلِّ الثاني

* * *

ـ الوقت ثروة ثمينة كيف تستغلُّه وتحافظ عليه؟

ـ اسمع معي هذا البيت:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سرْجُ سابحٍ
وخير جليسٍ في الزمان كتاب

* * *

ـ ما شعورك وأنت تتابع حركات التحرر العالمية؟

من أطاق التماس شيء غلابا
واغتصاباً لم يلتمسه سؤالا

* * *

ـ اين تجد نفسك في ابيات المتنبي؟ وماذا تقول للمثقفين في عصر المادة؟

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
وأخو الجهالة في الشقاوة ينعمُ

وكذلك:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص
فهي الشهادة لي بأني كامل

* * *

- إجابات كافية وشافية وتفهمٌ لشعر المتنبي. أين ترى الوخز بالإبر؟

أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
اذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنّنّ أنّ الليث يبتسم

* * *

- وكيف يكون الوصول الى العلا؟

تريدين إدراك المعالي رخيصة
ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل

* * *

- هل توجّه تقريعا لأولئك الجبناء المتخاذلين؟

- وكيف لا:

نحن بنو الموتى فما بالنا
نعافُ ما لا بدّ من شربه

* * *

واقول لهم ما قاله المتنبي ايضا:

عش عزيزاً أو مت وأنت كريمٌ
بين طعن القنا وخفق البنودِ

* * *

وايضا:

واذا لم يكن من الموت بدٌّ
فمن العجز ان تكون جبانا

* * *

- تختلف ميول الناس نحو المرأة فذاك يحبها بدوية وآخر يحبها حضرية أين يتوجه اعجابك؟

ما أوجهُ الحضر المستحسنات به
كأوجه البدويّات الرعابيب
حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطرية
وفي البداوة حُسنٌ غير مجلوبِ

* * *

- غربة الانسان بين اهله وفي وطنه قاسية هل عشت هذه الغربة؟

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني
إنّ النفيس غريبٌ حيثما كانا

* * *

- تختلف نظرة الانسان نحو أخيه الإنسان من واحد لآخر. فما مقياسك؟

ودهرٌ ناسه ناسٌ صغارٌ
وإن كانت لهم جثثٌ ضخامُ
وما أنا منهمُ بالعيش فيهم
ولكن معدنُ الذهب الرّغامُ

* * *

- يختلف موقف الانسان من صدمات الدهر بين الاستسلام والصبر. ما موقفك؟

إن ترمني نكباتُ الدهر عن كثبٍ
ترم امرءاً غير رعديدٍ ولا نكسِ

* * *

- من صفات الانسان الشكوى وكلنا يشكو. ممّ تشكو في هذه الحياة؟

أمَا في هذه الدنيا مكانٌ
يسرُّ بأهله الجار المقيمُ
تشابهت البهائمُ والعبيدُ
علينا والموالي والصميمُ
وما أدري اذا داءٌ حديث
أصابَ الناس أم داءٌ قديم

* * *

- بوحك عميق، وتجربتك حارة وواسعة. فارجو أن تلخص تجربتك مع الناس. وما رأيك في ذلك؟

اذا ما الناس جرّبهم لبيبٌ
فإني قد أكلتهم وذاقا
فلم أرَ ودّهم الا خداعا
ولم أرَ دينهم إلا نفاقا

* * *

وفي هذا يقول المتنبي:

افاضلُ الناسِ أغراضٌ لذا الزمن
يخلو من الهمّ أخلاهم من الفطنِ

* * *

- أين تجد نفسك وتضعها بين الشعراء؟

وما الدهر الا من رواة قصائدي
اذا قلت شعراً اصبح الدهر منشدا

* * *

- نريد ان تفيدنا بخلاصة تجربتك مع الحياة والزمان؟

عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا
فلما دهتني لم تزدني بها علما

* * *

- هل تعتقدُ بأن لكلّ إنسان خصوصيات واسراراً من حقّه ألا يبوح بها؟

وللسرّ مني موضع لا يناله
نديمٌ ولايفضي إليه شرابُ

* * *

- السؤال الاخير من المحور الثاني: ما البيت الذي أصاب الحقيقة ومازال يطرقُ بالك؟

ومن نكد الدنيا على المرء أن يرى
عدواً له ما من صداقته بد

* **المحور الثالث**

بعد رحلتنا الشيقة بين اشعار المتنبي ومافيها من حكمة ومواقف، ارجو ان تسمح لنا من جديد. نطرح ما يجول في ذهننا من اسئلة وتجود علينا بأجوبة من اشعارك الخاصة. ارجو ألا نضايقك يا حكيم المعرّة. ويا فيلسوف الشعراء. اهلاً وسهلاًبك...

- الموت كلمة ليست سهلة كيف تتعامل معه؟

فيا موتُ زر إنّ الحياة ذميمةٌ
ويا نفس جدّي إنّ دهرك هازلُ

* * *

- وما موقفك من رفقة السوء؟ وماذا تقول فيها؟

ولا تجلس الى اهل الدنايا
فإنّ خلائق السفهاء تعدي

* * *

واقول ايضا:

والغل كالماء يبدي لي ضمائره
مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

* * *

- كيف تعبر لنا عن ضرورة العلاقات الاجتماعية وحاجة الناس لبعضهم؟

الناس للناس من بدو وحاضرةٍ
بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ

* * *

- يقولون: إنك متشائمٌ ولك وجهة نظر متفردة من النسل والزواج أصحيح هذا؟

- اجل

ومـا الدهر اهلٌ ان تؤمّل عنده
حياةٌ وان يشتاق فيه الى النسل

* * *

وأقول:

إذا شئت يوما وصلة بقرينة
فخير نساء العالمين عقيمها

* * *

- حب الحياة والبقاء عزيزة في كل إنسانٍ. هل تفيدنا برأي من عندك؟

وحبّ العيش أعبدَ كلّ حرٍّ
وعلّم ساغباً أكل المرار

* * *

- يؤلمني المتكبّر والمتعالي على أبناء جنسه فهل تشاركني نفس الاحساس؟

إن لم يكنِ رشد الفتى نافعاً
ففيه انفع من رشده
تجربة الدنيا وأفعالها
حثّت أخا الزهد على زهده
لو عرف الانسان مقداره
لم يفخر المولى على عبده

* * *

- لكل إنسان دليلٌ يهتدي به في حياته، ويسير على خطاه. فما دليلك؟

كذب الظنّ لا إمام سوى العقـ
ـل مشيراً في صبحه والمساء

* * *

- تقع على عاتق رجال الادب واجبات ثقيلة، وفي عنقهم أمانة وعليهم رسالة هامة. فماذا تقولُ لهم في أيامنا الراهنة؟

بني الآداب غرتكم قديما
زخارف مثلُ زخرفة الذباب
ومـا شعراؤكم إلا ذئابٌ
تلصّصُ في المدائح والسباب

* * *

- الحياة تتوزع بين فرح وغم وعرس ومأتم. كيف تتعامل معها؟

غير مجد في ملّتي واعتقادي
نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيهٌ صوت النعيّ إذا قيـ
ـس بصوت البشير في كلّ ناد

* * *

- من حقّ كلُ إنسانٍ أن يستأثر بنفسه ويحبُ التملك والتميّز. فهل تحب الخير لنفسك فقط؟

ولو أني حبـبتُ الخلد فرداً
لما أحببت بالخلد انفرادا

* * *

ألم تسمع:

فلا هطلت عليَّ ولا بأرضي
سحائبُ ليس تنتظم البلادا

* * *

ـ برأيك من هم الغرباء؟ واين يعيشون؟

اولو الفضل في اوطانهم غرباء
تشذُّ وتنأى عنهم القرباء

* * *

ـ ما اعظم خسارة يتعرض لها المجتمع والانسان؟

اذا كان علم الناس ليس بنافع
ولا دافع فالخسر للعلماء

* * *

ـ هناك من يتهمك بالإلحاد.. فأرجو الا تنزعج من سؤالي.. ما ردك على هذه التهمة؟

الله لا ريب فيه، وهو محتجبٌ
بادٍ وكلٌ الى طبع له جذبا

* * *

وايضاً:

حكمٌ تدلُّ على عليمٍ قادرٍ
متفردٍ في عزّةٍ وكمالٍ

* * *

واقول:

عجبي للطبيب يلحد في الخا
لق من بعد درسه التشريحا

* * *

ـ ما وجه نظرك في هذه الآفة المحرمة؟ وأقصد بها الخمر

البابليّة باب كلّ بليّة
فتوقّينْ هجوم ذاك البابٌ
جرّت ملاحاة الصديق وهجره
وأذى النديم، وفرقة الأحباب

* * *

ـ ما التجارة الرابحة للإنسان؟

رايت سكوتي متجراً فلزمته
اذا لم يفد ربحاً فلست بخاسر

* * *

ـ كيف تتعامل مع عيوب الناس؟

بني الدهر مهلاً إن نممت فعالكم
فإني بنفسي لا محالة أبدأ

ـ مِمَّ تبدي عجبك ايها الشاعر الحكيم؟

تعبٌ كلُها الحياة فما أعجـ
ـب إلاّ من راغبٍ في ازدياد

* * *

ـ ما الابيات التي تبصر فيها رغم عاهتك؟

في كل بيت أبصر. والعمى في البصيرة وليس في البصر ورغم ذلك اقول:

ليلتي هذه عروسٌ من الزنـ
ـج عليها قلائدٌ من جمانِ
وسهيل كوجنة الحبِّ في اللّو
نِ وقلب المحبِّ في الخفقان

* * *

ـ كيف تدافع عن نفسك من التهم وعن آرائك التي تطرحها وتدلي بها؟

خذي رأيي وحسبك ذاك مني
على ما فيَّ من عوجٍ وأمتٍ
وماذا يبتغي الجلساء عنديَ
أرادوا منطقي وأردت صمتي
ويوجد بيننا أمدٌ قصي
فأمّوا سَمْتَهُمْ وأمَمْتُ سمتي

* * *

ـ كيف نظرت الى الحياة بعد عيشٍ مديدٍ من العطاء والتأليف؟

ربَّ متى ارحل عن هذه الدنـ
ـيا فإني قد أطلتُ المقامْ
والعيش سقمٌ للفتى منصب
والموت يأتي بشفاء السقام

* * *

ـ هل هناك بيت قلته وكنت تتمنى عدم قوله لانه تجاوز الحقيقة والممكن؟

وإني وإن كنت الأخير زمانه
لآتٍ بما لم تستطعه الأوائلُ

* * *

ـ السؤال الاخير صف لنا امراض المجتمع القاسية. هل بإمكانك ان توجزها لنا؟

ـ إنها رحلةٌ ممتعة وذكريات لا تنسى واليك جوابي عن سؤالك الاخير وارجو ان اكون مصيباً في تحديد الداء:

قد فقد الصدقُ وماتِ الهدى
واستحسن الغدر وقلَّ الوفاء

* * *

طريق السفرجل

بقلم:

صلاح الدين جنيد

للسفرجل كما للحرير طريق، وكلا الطريقين يصل بين الشرق والغرب وكلاهما مرت فيه أمم وسادت فيه دول وازدهرت عليه حضارات، وكلاهما لعب دوراً اقتصادياً وشهد رخاءً وعصوراً ذهبية فكلاهما مرت عليه نكبات وطرأت عليه تغيرات.

لكن طريق الحرير محفوفة بالمخاطر والصعوبات والعقبات أكثر من سواه من الطرق والدروب وتبلغ طوله الوف الكيلومترات ويجمع معظم لغات الارض، وبينها اللغة العربية، ام اللغات، ويصل هذا الطريق ما بين الصين وبلاد الرومان كما عرّفته الموسوعة البريطانية: «الطريق التجاري الذي يصل الصين بالغرب وتحمل بوساطته البضائع والافكار بين الحضارتين العظيمتين حضارة الصين والرومان) بينما كان طريق السفرجل مفروشاً بالورود والرياحين ومحاطاً بالاشجار والازهار تجري من تحته الانهار وتصدح على جانبيه العصافير والاطيار وهو طريق البيئة البكر والطبيعة الخضراء وكان في وسطه الدار الخضراء دار العز والرخاء والخير والعطاء طريق الجنان طريق السحر والجمال طريق العلم والنور، نور العلم والمعرفة، منه انبثقت العلوم الانسانية والحضارية مفتقة قرائح العلماء وملهمة الشعراء مصباح الهداية للشرق والغرب منه انتقلت الانسانية من دياجير الظلام والجهل الى نور العلم والثقافة فأوصل المعرفة والحضارة الى الصين شرقاً والى الاطلسي واسبانيا غرباً وقضى على الجهل والتخلف ونقل الانسان من الهمجية الى الانسانية السمحة من طريق السفرجل في دمشق

انتقل العلم الى الكوفة والبصرة وبغداد وسامراء وسمرقند والسند حتى الصين. ومنه الى الاسكندرية والقاهرةوطرابلس والزيتونة والى طليطلة والزهراء.

وكان عوناًومعيناً وحامياً وحارساً أميناً لقوافل طريق الحرير وهوفي مجال الاطوال والمقاييس قصير ولكنه في الفضل والعطاء ونشر الخير ونفع الانسانية وازدهار الحضارة والرخاء كبير وفي قدم التاريخ يفوق طريق الحرير وجميع الطرق.

هذا الطريق الذي لايزيد طوله عن /٦٠/كم والذي يبدأ من غوطة دمشق شرقاً حتى سهل الزبداني غرباً، حيث كانت تنتشر حوله اشجار السفرجل فلا تخلو منه ساقية او نهر حتى ملأ مجاري القُريان والغدد وزين السفرجل الحدائق والمتنزهات وملأ البساتين والجنان ودخل الى المنازل وهذه حقيقة بقيت ثابتة حتى الثلث الاول من هذا القرن الذي نحن فيه ثم بدأت تضعف وتزول شيئاً فشيئاً بفعل إنسان الحضارة والتقدم.

والآن بعد هذا لنسر في طريق السفرجل. وهو يحدثنا عن هذا الشريط الجميل الذي يمر بين الجنان والربا والوهاد وليكن رائدنا في هذه المسيرة نهر بردى، ونبدأ من سهل الزبداني حيث أشجار السفرجل مبعثرة هنا وهناك بغير انتظام على ضفاف السواقي والمسيلات التي ترفد بردى من بقين ومضايا وغيرها من الجبال الغربية والشمالية الى ان يصل الى خانق التكية فينحدر النهر بين جبلين عن يمينه وشماله في واد عميق وقد سمي هذا الوادي باسم وادي بردى ففي هذا الوادي لا يشعر المار بحرارة الصيف او لهيب القيظ الحارق ويمضي الطريق فتصطف اشجار السفرجل جنباً الى جنب مع الاشجار الحراجية والمثمرة ويمتاز سفرجل الوادي من بين جميع انواع السفرجل بطعمه اللذيذ ورائحته الزكية ويقال انه ليس له غُصّة ويمر بطعمه اللذيذ طريق السفرجل بدير مقرن والحسينية وتقترب اشجار السفرجل من النهر وتبتعد عنه احيانا الى ان تصل الى بساتين عين الفيجة فتختلط مع اشجار الجوز والمشمش ويتزاحم على النهر الحور والصفصاف حتى تكاد تحجب الشمس تماماً ولهذا ترى اشجار الجوز والحور تشرئب أعناقها الى السماء لترى النور وتتبارى في العلو والاتساع والارتفاع لتنال قسطاً من اشعة الشمس وفي هذه البقعة يسير الانسان في وقت الظهيرة وكأن على رأسه مظلة فلا يرى من الشمس الا كما قال المتنبي:

فسرت وقد حجبن الشمس عني
وجئن من الضياء بما كفاني
وألقى الشرق منها في ثيابي
دنانيراً تفر من البنان

* * *

ولا بد للسائر في طريق السفرجل من وقفة عند الملتقى ليرى كيف تتدفق مياه عين الفيجة من الجبل وتندفع بقوة لتصب في بردى في منظر شاعري أخاذ والواقف امام هذا المنظر يشعر وكأنه انتقل من نعيم الدنيا الى نعيم الآخرة ثم يشرب من ذلك الماء الزلال وهو يحسب نفسه أنه يشرب من الكوثر. ويطول الطريق ولا تنقطع اشجار السفرجل ويضيق الوادي حتى تصل الى عين الخضراء ومن ماء عين الخضراء كانت

تسقى الدار الخضراء بدمشق ويتسع طريق السفرجل؟ ويتنفس نهر بردى وينشرح صدره من الضيق الذي أصابه في الوادي ويستقبل اشعة الشمس التي تسقط عليه كسلاسل الذهب لشدة صفائه وعذوبة مائه.

ويلتقي طريق السفرجل مع طريق دمشق بيروت ويمضيا معاً حتى يتوقف عند نبع العراد ولا بد من استراحة ووقفة وتأمل ولا بد من الاغتراف من ذلك الماء العذب المعين ليمتع ناظريه بما حوله من الخضرة وخاصة النامية على جانبي مجرى النبع من النعنع البري ونبات القرة الخضراء التي تتراقص مع النسيم العليل وتتمايل كالعذارى وتسمع نقيق الضفادع من بين النبات فيختلط مع خرير المياه المناسبة فوق الحصا كحبات اللؤلؤ ويجيبها من فوق الاغصان نغمات الحسون والعصافير والعندليب ويصدق ذلك المتنبي في قوله:

وأمواه يصل به حصاها صليل الحلي في أيدي الغواني
اذا غنى الحمام الورق فيها اجابته أغاني القيان

* * *

وينفتح طريق السفرجل استراحات في بساتين قدسيا والهامة ودمر وتحاط هذه الاستراحات والبساتين باشجار الزيزفون والوردة الشامية لتنشر عطرها ورائحتها في جميع ارجاء تلك الاسترحات الجميلة ولا يمكن للداخل الى هذه الجنان والبساتين إلا ان يصاب بالذهول والنشوة الصوفية لما يشاهده من المتعة والهدوء والارض المفروشة ببساط سندسي من الورق المتساقط ومن تلاحم الاغصان التي تتعانق كالعشاق من غير وجل وتتدلى ثمار السفرجل على الاغصان المنحنية وفي الزوايا التفاح السكري الذي تملأ رائحته وعبقه الاجواء لتملأ الجنان وتزيد جمالها جمالا.

ولا تبخل هذه الجنان فتجود بالضيافة للنزلاء والمارين أمامها.

وقبل ان يودع طريق السفرجل الهامة وقصورها بحوالي /٤٠٠/م يستوقفه المهندس يزيد بن معاوية حيث يضع حجر الاساس لتوسيع النهر المسمى باسمه ومن اجل توسيع طريق السفرجل ليمتد الى المهاجرين والصالحية وركن الدين والقابون حتى يصل الى حرستا وهناك في القابون وعلى ضفة يزيد اليمنى والسواقي المتفرعة منه تكمن اشجار السفرجل وفي مزرعة البكري التي أقام فيها الملك فيصل في أوائل هذا القرن وقال كلمه المشهوره (طاب الموت يا عرب) ومن بين اشجار السفرجل في تلك البقعة نفسها انطلقت الشرارة الاولى باعلان الثورة العربية الكبرى في كلمة السر المشهورة (ارسلوا الفرس الشقراء) إيذانا باعلان الثورة.

ثم يصل بنا الطريق الى الربوة تلك البقعة المباركة ذات المنظر العجيب هناك تأخذك الدهشة عند (ذات القرار المعين) التي ليس لها نظير أو شبيه في هذا الكوكب الارضي وان كانت قليلة اشجار السفرجل إلا ان انهارها السبعة التي تسير جنباً الى جنب في موكب مهيب يأخذ بالألباب وكان يضاف إلى أنهرها السبعة العين المعين التي تتدفق في تلك البقعة المباركة (عين الملتم) التي التحقت بركبها من العيون الاخرى بفضل الانسان

وعبثه يقول نزار قباني

ها هي الشام بعد فرقة دهر
أنهر سبعة وحور عين
النوافير في البيوت كلام
والعناقيد سكر مطحون

* * *

ويقول ابراهيم الخيارى «سارت بها الركبان وحدا بها الحادي ما ين قاص ودان وأولع بها الشعراء مدحاً ووصفاً (ذات القرار المعين) المشار الى ذكرها في الكتاب المبين فلقد وافيتها متنزهاً في رياضها وارداً سلسبيل انهرها السبعة ولا اقول حياضها فوجدتها نزهة للناظرين وسلوة لمحزون الخاطر وتحفة للقاطن والمسافر. ذهبت إليها مع بعض الاحباب الظرفاء ومررنا فيها بالنيربين التي زادت خضرتها وراقت نضرتها فإذا انهارها تنساب في رياضها وتسقي أغصانها، احجلتها الورود مع كونها من غيوضها، فحللنا بستاناً من بساتينها والانهار تتلاطم بمعينهاوالمحل المشار اليه مشهور اللطافة والمحاسن يسمونه بالنوفرة وباللغة العامية بالفوارة وفي مقابل هذا مجلس لطيف الشكل حسن الموضع مستعذب الوصل يصعد ماء فوارة نحو قامتين، ومقيلنا به فاذا به انزه محل ترتفع فيه الابصار واوجه منتزل تقابله أعين الناظر ايوان لطيف يقابله مجلس حسن شريف مركب على اعواد خشب يمر تحته نهر بردى وهو أعظم الانهار السبعة التي تجوس خلال الربوة كان غالب يومنا فيه تظللنا الاشجار وتجري تحتنا الانهار ويتحفنا تغريد الاطيار فهو يوم غفل عن تكدير صفوة الدهر ومن معجم البلدان لياقوت الحموي الربوة: هي موضع ليس في الدنيا انزه منه فيها عيون بالاضافة الى الانهر).

وفي كيوان تكثر المنتزهات وأمكنة الجلوس حيث يوجد سفائف بين شجر الصفصاف والحور والجوز وكل مفرش حصير تحيط به جداول الماء من أربع جهات من البرك والبحيرات بالنوافير وفيه منتزه البهنسة وهو روض يجمع بين اشجار الفواكه والازهار وعيون الماء ويعلوه محله النيربين اعظم المحلات واخضرها ويدخل بردى وفروعه دمشق وتحف به المنتزهات والاشجار والجنان والخضرة وتنتشر فروعه وتجرى في دمشق وحولها جرى الدم في العروق فتبعث فيها الحياة ويذكر ابن بدران نقلاً عن ابن البقاء البدري: انه في ظاهره باب السلام الى حد باب توما /٣٦٠/ عيناً تجري الى القبله يقول البدري رأيت أغلبها وارتويت من أعذبها، وبين مقرى وسطرا منتزه يسمى بالليلكي يجتمع فيه الناس أيام زهر السفرجل ويسيبون الماء تحت الاشجار ويوقدون في ظلمه الشهر قشور البيض ويطلقونها في الماء ويعلقون قشور النارنج موقدة في الاشجار ويضربون الخيام في بستان الحاجب ويقطعون اوقاتاً من اللذة والانشراح يعجز الوصف عنها وفيها يقول علاء الدين المارديني

اشرقت الارض بنور ربها
واخذت الارض زخرفها وازينت

* * *

يقول البديري في نزهة الانام

ومن محاسن الشام (الوادي التحتاني) وهو شرق مرج الشيخ رسلان يشمل على غياض ورياض فالرياض هي رياض السفرجل وفيه يقول القيراطي:

فؤادى الى بانات جلق مائل
ودمعي على انهارها يتحدر
فوافي الى زهر السفرجل شيقاً
اذا ما بدا مثل الدراهم ينثر

غـيـاض يـفـيـض الماء في عـرصـاتـهـا
فـتـزهـو جـمـالاً عند ذاك وتزهر
ترى بردى فـيـهـا يجـول كـأنـه
وحصاؤه سيف صقيل مجوهر

* * *

ويقول يحيى الخيار
زهر السفرجل بالجميل رأيته
قد فاق زهر اللوز في الاوصاف
هناك بنثر للنديم دراهماً
ونثار ذا بخالف الاوصاف

* * *

ومن الفوائد ان ازهار الفواكه لم يؤكل منها سوى زهر السفرجل لحلاوته وعطريته وكان منه في دمشق تسعة أصناف او انواع وبهذا الوادي في طريق السفرجل كان (منتزه ست الشام) وهو مرجه خضراء ما بين الفياض وبها عين تجري بماء بارد عذب

يقول ابن حجه:
تقول لست الشام لما غازلت
بعينها فأنعشت حياتي
وانشقت بمرجها وأبرزت
نثراً حلا لأنه نباتي
خذني بغير خمرة فإنني
بديعة في الحسن والصفات
واستجلني عروسه يتيمه
شامية وعسن بلا حماة

في نزهة الأنام ص ٣٢٢
نقلاً عن ابن الصائغ لما قدم من القاهرة الى دمشق نزل عند الامير مجير الدين بن تميم ونهر ثورا يمر بداره فأجله على جانب النهر لأجل برد الهواء فرأى بن الصائغ ما يمر من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدامه منه ما اعجبه ثم التفت لابن تميم وقال له أنت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة بفيض فضله العميم وانشد في الحال شعراً:
يقول وقد رأى ثورا خليلي
يفيض بسائر الثمرات فيضا
أيكفيكم فلا تشرون شيئاً
فقلت له نعم ونبيع أيضا

* * *

قال ابن الصائغ وهذه الفاكهة اليس يرميها في النهر ارباب الفياض قال ابن تميم انما هذه من استماله الاشجار وانحنائها عليه فيلقيها النسيم عندما تشتمل الاغصان. واما البساتنة فإنهم يضعون فواكه مجموعة على ابواب البساتين كالزكاة لمن يمر بها ويحتاج الى شيء فيأخذه من الفقراء والمساكين ومن القديم كان الفقير يضع مكتله على رأسه ويسرح في طرق البساتين فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الاثمار من غير ان يتناول بيده شيئا ومن البساتين ممن يزرع اشجاراً للفقراء يعرفونها بالتكرار وغالباً ما يزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها ولا تزال هذه موجوده حتى الان في منطقة القابون بالنسبة لشجرة التوت ويخترق طريق السفرجل مدينة دمشق الى الغوطة المملوءة بأشجار السفرجل والتي تبدأ من شرق مرج الشيخ رسلان فهناك الوادي التحتي يقول البدري في كتابه نزهة الانام (الوادي التحتي شرق مرج الشيخ رسلان ويشمل على رياض وغياض فالرياض هي السفرجل)

وفي الغوطة لا يخلو بستان ولا نهر ولا جدول من اشجار السفرجل وقد اشارت وثيقة من وثائق سجلات المحاكم الشرعية بدمشق وسجل ٢٣٦، الوثيقة ٤٦٥، الى وجود واد في دمشق يسمى وادي السفرجل تقول الوثيقة: وجميع ارض البستان الكائن بأراضي المرجة، ويعرف بوادي السفرجل، والمحدود كامله قبلة نهر بردى، وشرقاً المرجة وتمامه وادي المرن، وشمالا الطريق وفيه الباب وغرباً وادي الجنادلة.

والسفرجل من الاشجار المعمرة يعيش مئة عام ومن الاصطلاح المحلي في دمشق وما حولها البستان الذي فيه السفرجل والتفاح بالدرجة الاولى وغيره من الثمار واما اذا كان خالياً من هذين النوعين يسمى حقلاً والبستان كان يحاط من اطرافه كلها اما بالاشجار العالية كالسرو والحور او بالزيزفون والورد الجوري والعليق.

* اختفاء طريق السفرجل

من اهم اسباب ازمة العلاقة بين الانسان والبيئة عدم ادراك الانسان والمجتمع الانساني التكامل لمكونات البيئة المحيطة به وكانت النتيجة ان الآثار الناجمة عن عدم الادراك هذا تدعو للأسى والحزن العميق ومرد ذلك الى الاتجاهات الثقافية التي سادت والتي تقدم صورة للكون وان الانسان بامكانه عن طريق العلم ان يهيمن على الكون وان يشكله وفقا لغاياته وان الطبيعة مراح مستباح للإنسان كيفما شاء.

ولا اظن احداً ينكر ان تقدم العلم والصناعة قد حسن بعض اوجه الحياة البشرية، ولكن التكنولوجيا واجهت صعوبات كثيرة من قانون النتائج غير المتوقعة فاستخدام المبيدات الحشرية زاد من غلة الحاصلات الزراعية ولكنه لوث موارد المياه وقضى على اعداد كثيرة من الحشرات النافعة وبعض الطيور، واحدث ابتكار السيارات والطائرات ثوره في نطاق السفر والرحلات ولكنه افسد ولوث الغلاف الجوي وجعله حاوية للنفايات وتكامل البيئة يتوضح في سلاسل وشبكات الغذاء لان الكائنات الحية توجد في تفاعل مع بعضها حيث يرتبط كل منها بالآخر بصورة مباشرة او غير مباشرة من جهة وبالمواد غير الحية والعوامل البيئية من جهة اخرى بحيث تكوّن مجتمعه اساس النظام البيئي في شكله المتوازن المستقر.

فالنباتات الخضراء تقوم بواسطة عملية التمثيل الضوئي بصنع مواد الغذاء من ثاني اكسيد الكربون والماءوالطاقة الشمسية وهكذا تدخل هذه المواد الاولية غير الحية في السلسلة الغذائية وتتغذى الحيونات العاشبة على النباتات وتصبح الحيوانات العاشبة بدورها غذاء للحيوانات المفترسة اي تكون الكائنات الحية فيما بينها سلسلة غذائية.

ويحدث الاختلال البيئي باختلال النظام القائم عليه من اهم العوامل التي تخل بالنظام البيئي:

- تغيرات الظروف الطبيعية كالجفاف الذي يصيب بعض الاماكن
- القضاء على بعض احياء البيئة
- ادخال كائن حي في بيئة جديدة
- واهمها جميعا تدخل الانسان الجاهل الجشع

في البيئة وتغيير الاماكن وتحولها من وضع الى أخر كقطع الغابات والاشجار وتحويلها الى ارض زراعية وكذلك تجفيف المياه وتحويل مجاري الانهارو القضاء على الغطاء النباتي واستخدام المواد الكيماوية في التسميد وقتل الاحياء الضارة والنافعة وغرس الغابات الاسمنتية مكان الاشجار لإنشاء المعامل الصناعية والاستراحات فوق منابع الماء والقاء النفايات في المياه الراكدة والجارية. وحفر الآبار العشوائية بغير نظام كل هذه وغيرها أدت الى نقص الماء بالدرجة الاولى وجفاف الانهار كا هو الحال في بردى وفروعه خلال معظم ايام السنة وعندما يجري يحمل الاوساخ والنفايات وينشر الروائح الكريهة ويتدفق بالماء الآسن، والنتيجة كانت اختفاء هذا الطريق الجميل والرائع، طريق السفرجل.

أبو حيان التوحيدي

غريب الزمان

بقلم:
مصطفى أنيس الحسون

ربما كانت الغربة التي يعيشها المرء، خارج حدود بلاده بين حقائب سفره، غربة تذكي أسباب الحب والشوق، وتسطر قصائد العشق للأهل وللديار. تلك ما نسميها اصطلاحاً غربة المكان، اما غربة الزمان فهي التي يستشعرها المرءوهو في حضن بلاده وبين أهله وأقرانه. وأديبنا أبو حيان التوحيدي أحد أعلام النثر في العصر العباسي ترك لنا آثاراً موشاة بطيوف الحزن واللوعة، والغربة القاتلة التي عاشها بين ناسه وعانى مرّها من استهجان المجتمع له ومن الشقاء والمسرة اللذين تبعاه.

هو علي بن محمد بن العباس أبو حيان التوحيدي، ولد ببغداد ٣١٠هـ من أبوين فقيرين وقضى القسم الاكبر من حياته فيها ولكنه كان كثير الترحال فتنقل بين بغداد ونيسابور وشيراز وغيرهما من العواصم إما طلباً للعلم، أو بحثاً عن الرزق، وهذا شقٌ من غربته لم يذكره في أدبه ولم يخلّفْ عنده عظيم الأثر.

درس الفقه والحديث والكلام والتوحيد واعتنى بمسائل المنطق والفلسفة وانصرف الى البحث في اللغة والنحو كذلك اشتغل بالتصوف وتتلمذ على يد علماء عصره الكبار مثل ابو سليمان السجستاني وابو سعيد السيرافي وغيرهما، وعُرف أنه أديب لامع كما حدّث ياقوت الحموي حين قال (فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنة وفصاحة وحفظة، واسع الرواية والدراية يتشكى من زمانه ويبكي في تصانيفه)[1]

وقال عنه عبد الرزاق محيي الدين (لم نَعْهده إلا شاكياً ولم نقرأه الا باكياً، تتبعناه في مؤلفاته المختلفة ورسائله الكثيرة، فألفيناه لم يفتتح كتاباً الا بشكوى ولم يختم رسالة الا بتشاج، ربما استعرض حرمانه بن فصل وفصل ومقابسة ومقابسة حتى صارت الشكوى والتظلم الطابع الذي يتميز به اسلوبه)[٢]

أهم آثاره الأدبية كتاب الامتاع والمؤانسة وكتاب الصداقة والصديق والهوامل والشوامل والبصائر والذخائر، وكان أطرف كتبه واكثرها براعة في التصوير والسخرية هو كتاب اخلاق وزيرين، كما كان له كتب في الفلسفة والتصوف ومنها المقابسات، والإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية.

ويتحدث الدكتور زكريا ابراهيم عن شخصيته (اي التوحيدي) من خلال كتاباته فيقول: إن له شخصيتان، شخصية الاديب الذي يصدر فيما يكتب عن الطبع والنوازع الوجدانية معبراًعن ذلك بوساطة نثر فني منمق وهذه الشخصية تظهر واضحة في رسائله الوجدانية وفي استطراداته المنمقة ككتاب الصداقة والصديق، والشخصية الثانية هي شخصية العالم الباحث المؤلف الذي شارك بأنواع المعرفة في عصره، وتظهر هذه الشخصية واضحة في كتاب المقابسات حيث يقول: (ما أعجب أمر أهل الجنة، قيل وكيف؟ قال: لأنه يبقون ابداً هناك لا عمل لهم الا الاكل والشرب والنكاح، اما تضيق صدورهم؟ اما يكلون؟ اما يربأون بأنفسهم عن هذه الحال الخسيسة التي هي مشاكلة للحال البهيمية، أما يأنفون أما يفجرون؟!)[٣]

في جواب التوحيدي إطالة مملة لا تقنع ولا تفيد لأنه افترض نعيم الجنة بالعقل لا بالحس وان العقل لا يعتريه الملل ولا تصيبه الكلفة.

لكن الشخصيتان عند التوحيدي امتزجتا وكان الرجحان على الغالب للناحية الوجدانية ويبدو ان التوحيدي كان معقل الطبع ذا مزاج سوداوي ويغلب عليه التشاؤم والحزن اللذان يفضيان بصاحبهما الى الانتقاص والنظر الى العالم من جوانبه المعتمة، لقد قضى التوحيدي عمره بالاسى، والتشكي وربما مُردُّ ذلك لفشله بنيل الحظوة عند الملوك والوزراء والامراء، فقد رحل التوحيدي الى ابي الفضل بن العميد الذي كان من ألمع شخصيات عصره علماً وأدباً وسياسة مما بهرَ بهِ اهل زمانه وكان يأمل من اتصاله به الفوز بالهدوء والاستقرار بعد طول غربة وتشرد، غير انه لم يفز منه بما كان يأمل ولعلّ ابن العميد ازعجه اعتداد التوحيدي بنفسه وتطاوله عليه وربما لهيئته الشاذة الزاهدة وكان بن العميد لا يبخس نفسه حقها من الزهو والاعتداد بهيبة الفرس ونزعتهم وعظمة السلطان فاحتقره واستاء منه فما كان من التوحيدي الا ان قام بتأليف رسالة المثالب التي أظهر بها عيوب ابن العميد ونقائصه.

ثم اتصل بعد ذلك بالصاحب بن عباد وعللته نفسه بأماني عذاب فتردد إليه في كوكبة هائلة ممن يقصده وعبر عن

النتيجة التي حصدها عنده بقوله (ولئن كنت قد انصرفت عنه بخفي حنين، لقد لصق به من لساني وقلمي كل عار وشنار وشين، ولئن لم يرني أهلاً لنائله وبره إني لذراه أهلاً لقول الحق فيه نبش ما كان اشتمل عليه من مخازيه ولئن كان ظن أن ما يصير اليَّ من ماله فبائع، إني لأيقن الآن ان ما يتصل بعد فيه من قولي شائع..)[٤]

لقد كان من أثر هذه الخصومة مع الوزيرين هذه التحفة الادبية الثمنية التي أودعها على حد تعبيره (نفسه العزيز ولفظه الطويل والقصير) وفي رسالته هذه نجد اسلوب التهكم والسخرية واضحاً، هذا التهكم الذي يحمل في طياته الإيلام والايجاع والشتم والسب للمهجو، مظهرا الكراهية والبغضاء والحقد.

يقول في هجاء الصاحب بن عباد (وما أتأمله في حال من الاحوال الا وجدته برقاً كاذباً ورأياً عازباً وركاكة ظاهرة ونذالة وافرة وهيئة خسية ونفساً على الذم حية لم ينشأ منشأ أدب ولا رافقته أولية حسب، فهو إن صال فعلى القريب الداني وإن هم فبالأماني فليس تتجاوز صولته عبده، ولا يخاف عدوه كيدَه، وقد جمع الى قبح المخبر بشاعة المنظر والى دمامة الخَلق سوء الخُلق)[٥]

ويطرح السؤال نفسه، لماذا اختزنت نفس التوحيدي كل هذا اللؤم؟ واذا كان فشل في باب لماذا لم يطرق غيره، واذا كان طرق وفشل أليس الذنب ذنبه؟ وهل للظروف التي عاشها يدٌ في ذلك مما خلق لديه عقدة النقص والشعور بالدونية حيث عقد الشقاء قرانه عليه منذ نعومة اظفاره، ومن اقسى ما كان يثيره ان الحياة اودعت في نفسه ميلاً وطموحاً الى الرفاه في العيش والتنعم بلذائذ الحياة، فمن البدهي ان تظهر لديه الشكوى والحسرة لانه لم يجد ما كان يتمناه وهو الرجل المعجب بنفسه وبذكائه وتفوقه فهو جدير بالحياة الكريمة رغم الألم العاصف الذي كان يسببه له شعوره بالفقر. فالفقر عنده فكرة رهيبة يضخمها خياله التحليلي ويزيدها هولاً، فهي تنطوي على معانٍ من الحرمان والجهد الأليم الذي يتطلبه الحصول على العيش الهانيء السعيد او الشبه هانيء وسعيد وكثيراً ما كان التوحيدي يهرب من هذا الواقع ويجعل من نفسه جباراً يمتص الألم والنقمة ويحولهما الى تصميم فتراه يتظاهر بالتعاظم والاستعلاء على حين أنه يجنح الى التواضع والتصاغر في بعض الاحايين وفي كتابه الصداقة والصديق (والله لربما صليت في الجامع فلا أرى الى جنبي من يصلي معي فإن اتفق فبقال او عصّار او نداف، أو قصاب، ومن اذا وقف الى جانبي اسدرني بصنانه، فقد امسيت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق مستأنساً بالوحشة معتاداً على الصمت، ملازماً للحيرة، متحملاً للأذى يائساً من جميع ما أرى)[٦]

ألهذه الدرجة ايها الاديب الضائع تعاني من الحسرة والتفجع لفقد الناس من حولك، الناس الطيبين حصراً، لماذا استسلمت لليأس والقنوط لماذا حنيت هامتك العلياء للمحنة، لماذا لم تتجاهل

كل من حولك وتعيش نسراً في القمة هازئاً بالصعاب.

هذا هو أبو حيان التوحيدي الذي استجرت ظروفه الحقد والكره على كل ما حوله ولكل من حوله ان الذي امضى حياته بالألم والعذاب والحسرة على فوات المأمول بعد المأمول والذي كان عرضة للقنوط واليأس، مَزّقَ في ثورة غضبه كتبه واضرم النار في اوراقها، تلك الكتب التي فني في كتابتها بصره وخارت قواه في تصحيفها وتوريقها ونسخها.

والحجة في حرقها عدم وجود من يستحقها ويعرف قدرها بعد موته وكأنه خَبِرَ العرب أمةً قارئة تتمثل بأول سورة نزلت في القران الكريم على النبي محمد صلى الله عليه وسلم (إقرأ)[7] لم يكن يعلم التوحيدي انه سيأتي اليوم الذي تستيقظ فيه اوربه على نظريات الخوارزمي وفلسفات الفارابي وقوانين الجبرتي في حين ان العرب يغطون في سبات عميق.

وعندما كتب رسالة اليه صديقه ابو سهل علي بن محمد يلومه على فعلته تلك، في حرقه لكتبه رد عليه التوحيدي برسالة معتذراً عن ذلك بأسلوب مؤثر وتعتبر لتلك الرسالة اهمية عظمى في تبصر نفسية التوحيدي في اواخر ايامه فقال واصفاً ما لاقاه عندما بلغ سن الشيخوخة وقاسى ما قاساه من آلامها وخيبتها في كهولته نستعين الله على كل ما همَّ النفس ووزع الفكر وادنى من الوسواس. كل ذلك لما كان يجده من انكسار النشاط وانطواء الانبساط. ولقد ظهرت واضحة وجلية الافكار السوداوية في كتابه الصداقة والصديق هذا الكتاب الصادر عن روحه الممزقة الحزينة وهو الذي قضى العمر حثاً على طلب صديق مخلص او صاحب جيد، فتراه يقول في فاتحة الكتاب (قبل كل شيء ينبغي ان نثق بأنه لا صديق ولا من يشبه الصديق..)

ثم يذكرقصة جميل بن مُرَّة الذي لزم بيته واعتزل الناس ولما عوتب لذلك التصرف قال محتجاً (صبحت الناس أربعين عاماً فما رأيتهم غفروا لي ذنباً ولاستروا لي عيباً، ولا حفظوا لي غيباً، ولا أقالوا لي عثرة، ولا رحموا لي عبرة)

ولم يبخل القدر على التوحيدي بالفطرة النادرة والبديهة السريعة رغم انه بخل عليه بكل شيء، لقد كان يلم إلماماً تاما بطبيعة النفوس البشرية التي كانت تحيط به الى جانب الحس الفني الذي تفرد به فاجتمع لديه العلم مع الفكاهة مع بذره الحقد التي بنفسه تجاه الاخرين مما جعله يبدع في مجال السخرية ابداعاً خلاقاً جعل الفكاهة تنبع من صميمه وتتسرب من أناته ولقد رأيناه كيف جعله حقده على الصاحب والكراهية ومما قاله: (كان ابو الفضل اذا رآه قال احسب ان عينيه قد رتجتا من زئبق وعنقه عمل بلولب) كما كان شغوفاً بمتابعة نواقص الناس والامساك بزلاتهم كما توضح لنا ذلك في كتابه مثالب وزيرين حيث توافرت اسباب الهجاء واشعلها حسب الانتصاف والثأر فهو أهجى ما أثر في النثر العربي على الاطلاق وما كان يقوم كفء له كل المدائح التي قالها أصحابها بابن العميد وابن عباد وظلت مخازي الكتاب عالقة

بتاريخ هذين الرجلين مهما امتدت الحياة وطال الزمن.

هكذا رأينا كيف ان عقدة التوحيدي من مجتمعه جرّته لمواقف سلبية تجاه هذا المجتمع الذي لا يعرف كيف يداري مبدعيه ولقد تحدثت في حديث سابق في الثقافة الاسبوعية حول الأدب والأديب وحول وقوف الاديب موقفا مثاليا منطقياً من الامور قد لا يتوافق وتصرفاته وعندما قلت ان المبدعين بحاجة لان نمد لهم يد العون وخصصت فلاناً منهم، عوتبت على ذلك من قبل البعض مع ان ظاهر كلامي ليس بالمفهوم الواسع لباطنه. فأنا لن أدعي أن التوحيدي وسواه على حق وعلى صواب ولكن المسألة مسألة حساسية مفرطة تجعل هذا الاديب وذاك بين مطرقة الظروف وسندان المجتمع ولا أقصد التعميم لأن الكثرة الكثيرة من الادباء يفشلون في شتى نواحي الحياة فيضعون ساقاً على ساق ويريدون من المجتمع تقديم الطاعة والاحترام لماذا لانهم ادباء .

لا يا اخوتي الادب ادباً والرسول الكريم قال (أدبني ربي وأحسن تأديبي) فالاديب اولاً موقفاً وسلوكاً مع الناس قبل ان يكون سطراً او كتاباً وهناك بحثاً واسعاً نوقش في كتاب النقد العربي الحديث للدكتور عبد النبي اصطيف تناول شعار (الأدب للأدب)[١٠]

ويطرح السؤال نفسه بقوة هل سبب محنة التوحيدي صدقه وجديته في تناول الامور جميعها وابتعاده عن التزييف والنفاق هما مصدر كره الناس له وهل كان يفتقد الى الحكمة التي من شأنها ان تؤمن له ديناميكية وسلاسة في الحياة ومع الحياة دون ان تنال من كرامته وكبريائه.

أم انه حاقد سوداوي متشائم، إنني لا أميل لاتهامه ولقد تركت كلماته التي ذكر بها ابتعاد الناس عنه، في نفسي بالغ الاثر.

لكنني أطالبه بموقف حب يتناسب وأدبه فيحاول استيعاب الناس واحتواءهم ثم لماذا لم يطلب رزقه من الله وهو المحترف حرفة النسخ أصلاً فيضرب مشارق الارض ومغاربها بحثاً عن الرزق.

وختاماً اقول ان المسألة تبقى غامضة وبحاجة للغوص في البحث لكن ما نريده من الجميع هو تمثل الحديث النبوي ففيه خلاصة الخلاصة:

(صل من قطعك واعط من حرمك واحلم عمن جهل عليك) صدق رسول الله.

* الهوامش

١ ـ معجم الادباء لياقوت الحموي ج٢ ص٢٥.

٢ ـ معجم الادباء لياقوت الحموي ج٢ ص٢٥.

٣ ـ أبو حيان التوحيدي (عبد الرزاق محيي الدين ص٤٢.

٤ ـ اعلام العرب، زكريا ابراهيم، ج٢٥ ص ٩٨.

٥ ـ مثالب وزيرين للتوحيدي/تحقيق الكيلاني ص٩.

٦ ـ الصداقة والصديق للتوحيدي ص٣٧–ص٨٨.

٧ ـ القران الكريم سورة العلق.

٨ ـ الصداقة والصديق ص ٦.

٩ ـ نوابغ الفكر العربي ص٧٠.

١٠ ـ النقد العربي الحديث د. عبد النبي اصطيف ج٢.

في رحاب الادب السعودي

محمد حسين زيدان

في عيون الأمراء والأدباء

اعداد:

تميم الحكيم

ـ (مؤرّخ.. وعالم كبير.. ومحدّث.. وصاحب نهج وأخلاقيات فاضلة.. وهو واحد من الذين وهبوا أنفسهم للعلم والعمل به).

الأمير ماجد بن عبد العزيز

ـ (واحد أدباء المملكة الرواد الذين أثروا الساحة الادبية محلياً وعربياً بالكثير من الاسهامات الادبية والفكرية والثقافية المتميّزة)..

الأمير فيصل بن فهد

ـ (ركن من أركان الأدب في بلادنا.. بل هو ركن من أركان الأدب العربي بوجه عام.. فهو أديب عربي بارز له آثاره الخالدة وله محبوه وله مجالاته الواسعة في مناحي التفكير والتي لا تقتصر على جانب من جوانب الفكر بل تشمل كثيراً من تلك الجوانب.. ويعد الزيدان من الرعيل الأول في بلاغته وفي الاسلوب السهل الممتنع.. فهو سهل الادراك والمعاني ولكنه ممتنع اذا أراد الإنسان السير على منواله).

حمد الجاسر

ـ (أحد المتفردين في المملكة بمعرفة رجال السير والتاريخ القديم والحديث..

وهو مدرسة أدبية قائمة بذاتها من حيث اللغة والاسلوب.. يبهر المستمع والقارىء بقدرته العجيبة في حفظ الأسماء والوقائع والاحداث.. وكذلك يبهر الجميع بقدرته الفائقة على توارد خواطره وتسلسلها في كتاباته).

عبدالله بن ادريس

- (اديب كبير قدّم الكثير للساحة الادبية السعودية والعربية والاسلامية.. وهو حين يتحدّث يجبر الجميع على متابعة حديثه بكل اهتمام لمعلوماته الوافرة وسلاسة كلامه وحلاوته وبساطته.. وتواضعه الجم).

علي حسن العبادي

- (كان الزيدان طوال أكثر من خمسين عاماً السدرة التي تنطلق منها الكلمة المجنحة بتغريدها الشجي وألوانها الزاهية الخاطفة لتحلّق في أجواء الفكر وآفاق تتزاحم فيها مشاعر الفن واحاسيس الفنان.. الى جانب لمسات حانية رقيقة من عقل يشع ليضيء سبلاً الى الحقيقة التي لم يكن يجهد قط انها الضائعة).

عزيز ضياء

- (جبل شامخ من در ولؤلؤ، يرتكز على ركائز العلم وجواهره وروافده.. وهو ظاهرة نادرة فريدة من نوعها.. فهو المؤرّخ والكاتب والأديب والرواية والخطيب البليغ وصاحب الحديث والحوار الممتع الشائق).

عبد المقصود خوجه

- (علم بارز في دنيا الكلمة.. ومدرسة قائمة بذاتها.. اسلوبه قوي وعبارته فخمة مجنحة تموج بالحكمة في تركيب خاص).

علوي طه الصافي

- (اديب بليغ ممن يقرأون بالأذن.. فهو يعرف كيف يقرن الكلمة بأختها أو يشتق الكلمة من اختها وينسج العلاقات فإذا أنت تسمع كلاماً هو الشعر أو دونه الشعر.. وهو مؤرخ عصري لم يكن ينظر الى التاريخ باعتباره جملة من الاحداث والصراعات فحسب.. وإنما كان يستلهم منه العبر ويستذكر الامجاد وكأنه من خلال ذلك يهدف الى إعادة صياغة الحاضر).

د.جريدي المنصوري

ابراهيم منصور

النور العظيم

ألقيت في ذكرى المولد النبوي العظيم

حملت جرحي إلى أعتاب ناديه	يوم ذكراه أستجدي غواديه
هززت جزع أغاريدي وأخيلتي	خلعت نعل سفاري قرب وآديه
طهرت حرفي بجرحي فانتشى ومضى	ومضاً على شفة الأيام ترويه
هذا شراعي على لجيّ سيرته	كقطرة في عباب من غواليه
ألقيت للريح للإعصار أشرعتي	وجئت أرسو بحرفي في موانيه
حرفي بلا قامةٍ حرفي كذا لغتي	لا أين أطلب قاماتٍ تدانيه
حتى اذا اكتحلت بالذكر سنبلتي	جن الحصيد فلا أهراء تكفيه
حتى اذا اكتحلت من نور مولده	عين النظيم تجلى عبقرٌ فيه

لاح الضياء على البطحاء فانتحرت	نيران كسرى كما انشقت مبانيه
لاح الضياء فيا أوثان ظلمتنا	صيري هباءً ويا أنوارنا تيهي
لاح السناء فيا بشرى كواكبنا	بنعمةٍ كبرت عن كل تشبيه
هادٍ يقرب ظهر الريح بسرجه	كما المخلص فوق الماء يمشيه
كلاهما سار لا أين الكثيف به	سرا لإله هما بل قل تجليه
شوق الرمال ابتهالات مضرجة	عبر القرون تناديه، تناجيه
رق الإله لشوق الرمل فانبجست	نعمى الرسالة تشفيه وتفنيه

رسالة عرشت فوق الحدود هدى يسير في الأرض لا سور يواريه
الحق والخير فيض في مطارفها والشر في أمرها جذت نواصيه

قال السلام فيا ألواحنا انصهري سفينةً لنجاة الكون من تيه
الخلق قال: عيال الله لو عصرت كل المحيطات حبا لا توازيه
خطو تزمله المعراج كل مدى يذوب في نصله الساري ويذريه
تبارك الله ما أسمى محبته للعالمين وما أسنى تواصيه
نور تلألأ في أهداب خالقه قبل الزمان وبعد الأمر من فيه
هادٍ يهذب هذا الكون من سفه طفل هو الكون قد لاقى مربيه
كم ذا رأى الكون من بعل ومن هبل كم جاهلية شر في فيافيه
وذا فتاه أبو السبطين لا وثن يعلو على شاهق إلاّ ويرميه
يا كفه ورؤى موسى عزيمته وصدره قلب عيسى في حنانيه
قدمت حرفي قرباني بمولده فقطرة من نزاد الغمر تكفيه

يا أمّة الحق

يعتبر الأديب الشيخ عبد الرحمن العبيّد أحد الشعراء البارزين في ساحة الأدب السعودي.. إضافة الى دوره الفاعل في رئاسة (نادي الشرقية الأدبي)..
وللأستاذ العبيّد قصائد تحمل بعداً فنياً وقيمة فكرية.. وذلك ما نستشرفه من خلال القصيدة التالية التي اختارها لنا الشاعر كواحدة من أغلى قصائده..

يا أمّةَ الحقِّ ما أشجاكِ أشجانا ... وما يَسُرُّكِ سَرَّ القلبَ جذلانا
لا عُذرَ للحُرِّ إن هانت عقيدتُه ... عذرٌ لمن مات لا عُذرٌ لمن هانا
إنّي أحبُّ كريمَ النّفسِ معتصماً ... بالله مُلتمساً عفواً وغُفرانا
سيّانِ تلقاهُ في قولٍ وفي عملٍ ... يُبدي التّرفّع عمّا عاب أو شانا
فمن يُلبّي نداءَ الحقِّ في قلمٍ ... يُناشد النّاس إيماناً وإحسانا؟
ومن يُقاسمُني شجوي؟ وعاطفتي ... تَبوحُ بالشعر ناجانا وواسانا

يا باعث النُّور في الأعماق مظلمةً ... وغارس الحبِّ باقاتٍ وريحانا
باهى عبيدُ أضاليلٍ بمبدئهم ... ومارسوا الفكر تزويراً وبهتانا
ومجّدوا الرّأي والإلحاد في صنمٍ ... قد فاق في الذّلّ أصناماً وأوثانا
والحرُّ لا ينتمي إلا لخالقه ... ولا يذلُّ لغير الله اذعانا

يا من يرى الغرب يزهو في حضارته ... ولا يرى الزيف كفراناً ونكرانا

قلهـا بربّك كم ظلّت عـقـيـدتنا ... تسمـو بأرواحنا تُعلي سـجـايانا

تجوب دنياهمـو بالفتح شـامخـةً ... تروي الحـقـيـقـة نبراسـاً وبرهانا

حضـارةٌ بهـدى الإسـلام مـشـرقـةٌ ... فكيف تاريخـهـم يا قـوم ينسـانا

دعـهم يكيـدوا كـمـا شـاؤوا لأمّتنا ... وعـانق الفـجـر إنّ الفـجـر قـد حـانا

سـيّـان جـاهد سـيفٌ في مـعـاركنا ... أو جـاهد الفكرُ تبليـغـاً وتبـيـانا

مـا عَـشتَ دهركَ في سلبٍ تُشـانُ به ... تمارس الظّلم عـدواناً وطغـيـانا

ومـا أعـتـديت ولكن جئت تبلغـهم ... حـقّـاً.. وتنشـر بين النّاس إيمانا

ومـا مـصـصت دمـاء القـوم في ظمـإٍ ... ولا تعـصّـبت أو حـالفت شـيطانا

لكن رفـعـت لهم شـأناً ومنزلةً ... ورايةً ترجعُ المـمـسـوخ إنسـانا[1]

يا أمّـة الحقّ والآمـال ترمـقنا ... والفـجـر يرقـبنا والليل يغـشـانا

مـا للجـهـاد وأدنا فـيـه ألويةً ... وللمـيـادين عطلاً[2] من سـرايانا

وخـيلُ أبطالنا تحت الثّـرى صـهلت ... فـحنَّ خـالدُ مـشـتـاقـاً لدنيـانا

يريد أن يسـحق الطّغـيـان ممتشـقـاً ... حسـامَـهُ هزَّ تيـجـاناً وصُلبـانا[3]

يريد مـعـركـة الأفـغـان صـامـدةً ... والقـدس ترقبُ في البـأسـاء لبنانا

والحـرُّ إن لم يصُن في النّاس مـبـدأهُ ... جناه بين الورى ذلاً وخـذلانا

يا مـوقظ الهمّ في قلبي وعـاطفـتي ... وناسج الحـزن في الأعـمـاق أضنانا

ألهب خُطى الشعـر واسمع عند موكبه ... جـيـلاً تقـاتل إخـوانا وخـلاّنا

أمـجـادُ حطين مـازالت تناشـدنا ... والقـادسـيّـة واليـرمـوك تنعـانا

لسـانُ حـالهـمـو نصـرٌ نُعَـزُّ به ... أو مـيـتـةٌ وجنانُ الخلد مـأوانا

واليـوم عـدنا بأحـلام مـبـعـثـرةٍ ... ومـات إحسـاسنا شـيـبـاً وشـبّـانا

هم يقــذفــون بصــاروخ وقنبلةٍ ... ونحنُ نقـذف بالزّيتـون أغـصـانا

يا أمــة الحق والإسـلام مـيّـزَنا ... تفنى الحـيـاة ومـا تفنى مـزايانا
مـازلت فـوق جـواد الشـعـر ممتطيـاً ... أرنو لملحـمـة التّـاريخ مـيـدانا
لي مـبـدأ يهب الأجـيـال قـوّتهـا ... وينشـرُ الحقَّ نهـواهُ ويهـوانا
نسـجتُ آمـاله حُلمـاً أبوح به ... وصُـغتُ آلامـه للناس ألحـانا
كنّا نُلبّي نداء المسـتـغـيث بنا ... مـجـاهدين فـيـرنو الكون نشـوانا
واليـوم مـا عـاد يُغـرينا ويحـفـزنا ... من يسـتـغـيثُ وقـد هانت ضحـايانا
كـانت قـضـيـتنا بالأمس واحـدة ... واليـوم لم نسـتطع نحصي قـضـايانا
مـأسـاتنا أننا عـشنا بتـفـرقـةٍ ... تثـيـرُ في النفس أحـقـاداً وأضـغـانا
مـأسـاتنا أننا نحـيـا بغـربتنا ... في ديننا وجـمـودُ القـوم أشـقـانا
كنّا نُطبّقُ شـرعـاً واحـداً فـغـدا ... تشـريعنا اليـوم أشكالا وألوانا
فكيف يُرجى لنا نصـرٌ نعـزُّ به ... ونحنُ نُبـدي لغـيـر الله شكوانا؟
وكـيـف يسـعـد من أبدى تردّده ... وظلَّ في غـمـرات التيـه حـيـرانا؟

يا أمـة الحق والآلام مـوجـعـةٌ ... تُثـيـرُ في النّفس آهات وأحـزانا
مـهـمـا ابتـغـينا بغـيـر الله عـزّتنا ... أذلّنا فـارفـعـوا للحق بنيـانا
كُلُّ الموازين تبـقى غـيـر عـادلةٍ ... إلا الذي أنزل الرّحـمن مـيـزانا
فـهـو الذي أشـرقت فـيـه حـضـارتنا ... وهو الذي بمنارِ العلم أحـيـانا
وهو الذي جـاءنا يشـفي برحـمـتـه ... وينشـرُ الخـيـر واسـانا وزكّـانا
لا شيء غـيـر هدى الإسـلام ينقـذنا ... أكـرم بتـشـريعـه نهـجـاً وقـرآنا!

---

(١) هوالذي ضل عن طريق الهدى فمسخ فكره وعقله.
(٢) عطلاً: خالية، والمقصود هو تعطيل فريضة الجهاد.
(٣) هي فارس والروم.

د.جميل علوش

يا حلوة الثغر

رجـاء أجـمل أحـلامي وآمـالي   رجـاءُ بسـمـةُ أسـحـاري وآصـالي
قـالت: أتنظمُ بي شـعـراً فـقلتُ لهـا   لولاكِ لم تكن الأشـعـارُ توحي لي
من ومضِ عـينيك لما شعّ ومضُـهـمـا   همى من الوحي فـوقي ألفُ شـلالِ
قـد جفّ شـعـريَ يا حـسناءُ من زَمَن   فـهل أعـدت اليـه دفـقـه العـالي؟
كـانت تطاوعني الأشـعـارُ فـانقطعت   واليـومُ تنـهلُ في سحٍّ وتـهطالِ

وجلسـةٍ لكِ في بعض الرياض مـعي   ردّتْ إليَّ شـبـابي اليـانعَ الغـالي
طال اللقـاءُ ولم نسـأم وطالَ على   حلوِ الأحـاديث إصـغـائي وإقـبالي
انهلت سـمـعي مـا يحـيي الرميم ومـا   يُعـيـدُ لي من زمـاني البـائد البـالي
أيّام تفـتنني الغـاداتُ لا عـمـري   بشـافع ليَ في اللقـيـا ولا مـالي
بيني وبين الغـواني كلُّ شـاسـعـةٍ   يعـيـا بقطع مـداها كلُّ خـيّـالِ
كـانت خُـيوليَ تعـدو في الخـيال إلى   دنيـا الحـبيـبـات في هزج وتصـهـال
لكنّهـا حين يغـزو الفـجـرُ أعـينهـا   تلوذ بالصّـمت لوذَ اليـائس السّـالي

وكـان يردعُ نفـسي عن غـوايتـهـا   مـا تحـذرُ النفس من عـذلٍ وتسـآلِ
وكنت أعلمُ انّ النّاس مـذ خلقـوا   ذوو طبـاعٍ خـبـيـثـاتٍ وأفـعـالِ
إذا شـقـيتُ أعـاروني شـمـاتتـهم   وإنْ سـعـدتُ فـحُـسّـادي وعـذّالي
ولا يؤرّقـهـم ديـن ولا خُـلُق   إلا شـفـاية أوغـارٍ وأذحـال

مـرّ الشـبـابُ ولم أنقع به ظمـأ   ولـم أجـررْ على واديه أذيالي
ومـا تزال خـيـالاتي مـجـرّحـةً   من قـسـوة الظالمين الناس والآل

فهل عسيتُ وقد شابت ذوائبُ لي ... أن أشفيَ الصدر من همٍّ وبلبال
لو لم يكن ليَ من دفق الغرامِ سرى ... ما كنتُ أعرفُهُ في عمريَ الخالي
لكان عندي من عشقٍ ومن ولع ... ما ليس يعرفُهُ في الحبِّ أمثالي
وإنّ كبت شعور المرء يجعله ... كالسيّل مندفقاً من شامخ عالي

فيا رجاءُ اذا جاءتك أغنيتي ... ورنَّ عذباً كسجع الطّير موّالي
فرتّلي بعض ما يشجيكِ من نغمي ... ورددي عذب الحاني وأزجالي
وأيقني أنني لا أصطفي امرأة ... لم ينطبعْ شكلها الفتّانُ في بالي
تمرُّ عني كسرب الطّيّر رافلةً ... جموعها في تلاوين وأشكال
فلست أختار إلاّ كلّ ذي أنقٍ ... منها وكلّ بديع الشكل مُختال

وقيلَ: ماءٌ وصلصالٌ قد امتزجا ... وأروع الحسن في ماءٍ وصلصالِ
فقلتُ: آياتُ ربّي كلّها عَجَب ... فلا تشاب بنقصٍ أو بإخلال
من يخلقِ الزّهرَ في عود وفي شجرٍ ... ويطلع النبتَ في بيدٍ وأدغال
فليس يعجزُ عن نهدٍ وعن شفةٍ ... ولا يضيقُ بزعطافٍ وأكفال
وآية الله في دنياه ظاهرة ... في مونقٍ من غوانيها وفي حالي
وآية المرء نستجلي بدائعها ... في دميةٍ قد جلاها أو بتمثالِ
وفي صروح مشيداتٍ وفي عمدٍ ... ممرّداتٍ وآثار وأطلال
كلاهما مونق، لكنّ ما صنعت ... كفّاه فذٌّ فريدٌ ما له تالي
في كل لمحةِ طرفٍ منه بارقة ... تشقُّ ظلمةَ أستارٍ وأسدالِ

يا حلوة الثغر والعينين يحزنني ... أنّي ابتليتُ بشوقٍ جدّ قتّالِ
فلو سمعتِ هديرَ الشوق في جسدي ... مجلجلاً في شراييني وأوصالي
علمت كيف يموتُ المرءُ من ظمأ ... وقابَ قوسين منه الفُ سلسال
يا حلوةَ الثغر مرّ العمر بي عبثاً ... لم أحظَ منه بغير البائرِ البالي
تموجُ بالخزِّ دنيانا ورونقه ... وما لنا من حلاها غيرُ أسمال
فهل تردُّ لنا الأيام ما سلبت ... وهل تعوّضُ إدباراً بإقبال؟

مازن عبد الحميد نجار

أسرار في ملكوت الشعر

أسري في أسرار الارض السحيقة، فاحيا يراعا يزرع في الورق جنانا.. وانبتَ من صدر الارض.. كلمات عذراء..

أرضٌ أمامي.. وانعتاقٌ من ورق..
ورفيفُ أجنحةِ الطيوفِ،
وروحُ أشرعةِ البراقْ..
تعلو.. وتعلو، والألقْ
في صبوةِ العشقِ انتشى سرٌّ انعتاق
أرضٌ.. ووهجُ غياهبِ
من أغنياتِ الصّمتِ تخضلُّ افتتان
وعناق أخيلةِ لضفرِ سحائب
لتُغازلَ الصّبواتُ رقرقة المدى
لحناً.. يُكوثرُ قبلةً
وعلى صراطِ النار.. تهطلُ كالعناقْ..
وتغور في رحم الردى
عشقاً يؤبجدُ صمته وشيَ الجمان..
أبداً.. وتُحيي الأرضَ بعد الموتِ،
وحياً كالقدرْ
وكوهج اسراب الصورْ
أبداً.. كشلاّل الربيعِ،
أتيت يا سُحُبَ اشتياقْ..
أرضٌ أمامي.. والنُّهى
نهرٌ على تبرٍ يُسلسلني بيانا..
بدناهُ اشتعل احتراقا
يمتدُّ من أقصى سعير الوجد،

حتى غرب اسرارِ حزاني..
يهبُ البلابل شدوها
وعرائشُ النور ازدهت
منه ائتلاقا..
وحدي.. ومنه سلاحنا
بل شلْو آمالٍ على مرِّ الدُّنى..
ليُعاركَ الظُّلماتِ نجمٌ
ليميد صدرُ الأرضِ وعداً كم تلألأ..
كم تلألأ..
وحدي..
وأنتِ الأسطرُ الملقاةُ مرفأ
وعنادُ موجٍ قصيدتي، وبيارقي:
غُصصٌ تحجّر، في أمانيها البُعادْ..
عينٌ.. قذاها ملحميٌّ في السواد
وصلاةُ محرابٍ زكتْ
ازدهار فجرٍ.. والتقاءات الفراق
وردٌ..
.. وورد..
.. وتراتيلُ امتشاق
تبارك سرٌّ حباك الفؤاد
كنجوى أذان
بقلبٍ يغرّدُ جيلاً فجيلاً

تصيّد شعرٍ أنافَ جليلا
لتُعطين عشقي معاني الجهاد..
دُنياك صمتي
ومداك سرّي
عيناك مُعجزة الزمان
فبأيّ آلاءِ الرسال تُكذّبان؟!..
قالوا: ستنتحرُ الملاجىء
والمرافيءُ، في تغمُّدها
ستنهشُ حلمتها..
فترقّبوا..
من باعَ ساقيه لطينٍ يرفع الكفين
يدعو الكبرياء..
نخلاً.. يُغيثُ ولا يُغاث
كشموعِ معبدِ قلب شاعرٌ..
وبوح أفئدةِ هواء
هُزّي بجذعكِ أغدقي..
.. رُطباً لحلم مدائنٍ
.. قد رتّلت ورد السلاسل
تبارك عشقٌ لسيف يقاتل..
وغيم اشتياقٍ تسامى زكيّا
تبارك بوح السُكوت عصيّا
ومنه اشتعالُ دماء الزلازل..
والشاردات.. القاصياتُ.. الدانيات
الذئب يأكلهن

والخائفون.. الواجفون.. الراجفون
الموت يحصدهم
والناعقون.. الناعقون
الناعقون وراء سيفٍ من ذهب
قد حطّموه الى دنانيرٍ

فآهٍ من براكين الغضب..
والنّخلة المعطاء
النخلة المعطاء تستقي مليّا..
ونوارس الاحلام ضائعةٌ
تغيهّبُ ضفّة الشق الكليم،
وتزرعُ الشطآن ريّا..
لا النخل قبهَلها..
ولا بحرٌ يناجيها قصيّا
ورمي.. يحبُّك نخلةً
كم نورسٍ أضحى أبابيلَ الدمِ
سجّيلها.. إيقاد اشراق
لليلٍ مُطبقٍ.. صُبحاً عشيّا
فاعتقه قُبلة لهفة
تنسلُّ من سجن الفمِ
حسناءُ انت قصيدتي لن تهزي..
لن تهزمي
تمتدُّ من شفَة المُحيط..
ـ الى خَلاخيل الخليج
ولتشهدي.. يوم السؤال
فيوم يُزلزلُ الزلزال،
يوم ستخرج الأثقال،
يوم تُحدّثُ الأخبار..
فقولي، إنّني نبضٌ
سرى في خافق الظّلم..
أنا يا أرضُ ما أغمدتُ سيف المجد في القمم..
أنا ياأرض إيقاظٌ.. لصمتِ الليل والألم..
وفيك غرست قبلاتي
لإنبات انتفاض دمِ

ترانيم الغدر والثأر

من أنا؟ . .
ها أنذا،
إبنُ سلالةِ هذا الملك،
ومنْ أسياد هذا الزمان! . .
ومكاني؟ . .
بات - من جوده - في رفعة التكوين،
من روّاد هذا المقام! . .
فتراتيلي؟ . .
صلاةٌ،
في إختزان القهر،
والنزفِ،
وفي تجويد الكلام! . .
أحفظُ،
ابراهيمَ . .
وموسى . .
وعلّةَ التكوينِ،
والعهدَ الجديدِ . .
وأتمّ
في الأنامْ . .
غيرَ أني؟
ناسكٌ
مستسلمٌ،
في عُهْدَةِ الجلاّدِ،
للنخسِ العتيد! . .
فالقضاءُ؟ . . قدرٌ! . .
والله؟
قد وعد ابناءهُ،
في رقوة التلمودِ،
بالنصر الأكيد! . .

*

انا، إبنُ هذا العصر
عصرِ الرزايا، والسبايا،
وتجارة الرقّ،
للبيضِ القصورِ! . .[1]
وللدامعينَ،
خلفَ حائطِ المبكى،
يتلوّنونَ،
بتلاوة الصلاة خاشعينْ
انا، ما عرفْتُ هذا الكونَ،
إلاّ غلاماً خصيّاً،
لسادة الغرب،
قابعاً، مستسلماً،
فوق كرسيٍّ،
أبناءِ السلاطينْ! . .

أنا، ما جئتُ الى هذا الدهرِ،
لابني «طوبةً» في صروحِ المجد،
ولا آيةً،
في تقاويم العارفين! . .
أنا،
ما تفيأتُ بوارفةِ التاريخ،
ولا اقتفيتُ آثار أجدادي،
الأقدمين!

*

أنا، من بعتُ،
حطّينَ . . ويافا . . والجليل . .
أنا، من سلّمتُ قُدسَ القُدسِ
وقباب المسجد الأقصى . .
وثرى أرضِ كنعانَ العتيدة . .
أنا، من بعتُ أمجادي
بغانيةٍ من أحفاد «راحيلَ»
وتجاهلتُ تقديس العقيدة! . .

*

إني تسلطنتُ،
ولكن؟
حتى أحمي شرعتي،
من حقّكُم؟ . .
بعتُ نفسي
في دهاليز النخاسة
وشريتُم . . فارتويتمْ.
من تباريح المكيدة! .

*

أيها السادةُ الثوارُ،
«من الماء الى الماء»
وعلى مرمى العصورْ . .
من لي بعارفةٍ،
يقرأُ،
- في مرايا الليل -
خلفَ ما تذروهُ،
أشداقُ،
أسيادِ القصور؟ . .

*

من لي برمح،
«ذو الفقار»،
يبقرُ التاريخَ،
في عقر الرزايا . .
من هناتٍ،
وافتئاتٍ،
وافتخار! . .

*

من لي بحنكةِ،
عليٍّ؟ . .
من يأتني،
بابن الوليد؟ . .
وبسيف صلاح الدين،
يلمعُ في البيداء،
مشرقاً عن فتحٍ مجيد! . .

*

أيها السادة الثوارُ

«من الماء الى الماء»
هبّوا، وانقذوني! ..
اصنعوا أمجادكم،
من زهق روحي ..
واقتفوا آثار،
من كان على العرشِ
وليّاً
..
فاحرقوهُ،
وارجموني! ..
فلا التاريخُ،
يصنعُ للاجيال مجداً ..
إنما للاجيال مجداً ..
إنما الاجيالُ،
للتاريخ تبني،
من ثورة الثار
عصراً عربياً ..
شامخاً،
الى التحرير يمضي،
قاهراً،
إفكَ الجنونِ! ..

*

أيها السادة الثوار،
هبّوا
حرّروا ..
ثم ارجموني ..
وانبذوني ..
واسحقوني! ..

أيها اللّيثُ الذي،
مازال يزأرُ،
في محيطٍ،
تعفّرَ منه الجبينْ!
وتندّى ثراهُ
خجلاً ..
من تعبٍ،
زحفِ البطونْ! ..
أيها اللّيثُ العظيمْ!
أيها الأملُ المتبقّي،
في حافظة
هذا العصر ..
أيها الصابرُ،
المتحفّزُ ..
الرزين! ..
يا «حافظ» القلب،
من أقداس
هذه الأرض ..
يا رمز ثوّارٍ،
هذا الدربِ ..

توثّبْ .. يا أسد العُرْبِ ..
توثّب .. يا أسد العرب ..
توثّب .. يا أسد العرب! ..

* البيض القصور: إشارة الى البيت الابيض الاميركي

صرخة

بقلم:
وصال سمير

أحسست نفسي فجأة غير قادرة على البقاء في البيت.. اخترت مغادرته.. دون ان أعلن عن مكان تواجدي..

.. الرصيف الرمادي يمتد أمامي الى ما لا نهاية.. وهدير السيارات يملأ سمعي.. كنت بحاجة الى مثل هذا الضياع.. الصخب أخذني بقوة، فهمت في طريقي.. لا أدري الى أين أنطلق؟

وما ان ابتعدت عن بيتي مسافة ليست بالطويلة.. ممتلئة بمئات الافكار.. حتى ملأت سمعي صرخة غريبة سمرتني في أرضي .. تلتها صرخة ثانية وثالثة فغاض الدم في وجهي وأحسست بخوف شديد.

سيل متدفق من الصرخات كأنها خرجت من رأسي مخلوطة بكلمات ملضومة بعضها الى بعض، شكلت في داخلي نغما حزينا يائسأ.. قادما من مكان بعيد من كائن بعيد، تائه في قلب الدنيا.. كان الصوت صوت امرأة متوجعة يعلن عن شيء مجهول.. استنفرت المرأة بكل طاقتها لتعلن عن امر ما.. عن ألم ما.. توجعها حرق أعصابي.. وقد غدت تلك الأعصاب قابلة للاحتراق في السنوات الاخيرة..

شحوب مبيض كسا وجهها الاسمر، فبدت كشبح مخيف ظهر فجأة ليهدد ويتوعد. حدقت فيها غير مصدقة ما أرى.

كانت تحدث نفسها، تحطم نفسها، تلوح بيديها في فراغ موحش، وكأنها ترد وحوشا تبغي التهامها.

أنفاسها اللاهثة ترددت في صدرها النحيل..

كدت أهرع اليها لاخذ رأسها الى صدري.. وأبكي معها.. ولكني خجلت..

وتساءلت بحيرة:

ما سر عذابها يا ترى؟.. وما الذي نغص عليها حياتها.. حتى خرجت هكذا.. يدفعها الألم الى مثل هذه الحالة الهستيرية..

دق قلبي بعنف شديد في صدري.. وكأن صدري صار صدرها.. أحسست بالاختناق فتحسست عنقي بأطراف كفي..

اقتربت من تلك المرأة اكثر واكثر وكأن خيوطاً وهمية تربط بيني وبينها.

بحثت عن سر هذا التفجر الإنساني في قلبي.. وعن لغز تلك الثورة التي تشنها على الكون امرأة واحدة.

وسمعتها تهمس والكلمات تخرج غير مفهومة من فمها الذي يشبه فمي ـ لم أعد قادرة على الاستمرار ـ أحس بعجزي ـ كل شيء قد تغير ـ لا أملك في يدي ما يحل المشكلة.

بدت فجأة جدية تتقن فنّ الصبر والتحمل..

يبدو ان عاصفة حياتية، هبت عليها فحطمت كل أشرعتها وزعزعت كيانها.. فاجتثتها من أرض الواقع.

بكاؤها ونحيبها رسما خطوطا سوداء على بشرتها السمراء كانت خانقة فما سبب خنقها يا ترى؟..

كنت أحدق في وجهها وفي قلبي استقر رعب هائل.. إنها لتشبهني شبها تاما.. لباسها النظيف، حذاؤها الجديد واللامع.. وجهها الذي يدل على الاصالة والنبل.. لون عينيها بلون عيني، وجهها يشبه وجهي، فمها أيضا مثل فمي.. قامتها الطويلة والمنتصبة تشبه قامتي.

تشبهني في كل شيء .. وربما وجدت فيها صورتي.. فرق وحيد يفصل بيني وبينها.. أنا أقف الآن هادئة.. شعري منظم.. وهي تبدو ثائرة، وقد تشعث شعرها وتلطخ وجهها ببقع سوداء وحمراء.

سحابة ارتفعت بيني وبينها.. ربما رسمتها دموعي التي انحدرت على وجنتي غصبا عني.

ولكن.. ما علاقتي بهذه المرأة؟ ولمَ أقف محاذية لها وكأنها أنا؟.. أأنا صورة السكينة؟ وهي صورة الغضب والثورة.

بدت المرأة شاحبة كشحوب الموت.. وكأنها خرجت للتو من القبر بعد أن أزاحت التراب المنهال عليها.. وبدأت ترتجف كوليد فقد أمه.. غير قادرة على التخلص من اجواء لاندركها، وحالات لا نستبينها.

لا أدري.. لم انفلتت تنهدات من صدري.. أأنا أتعاطف معها الى هذا الحد؟.. سالت دموعي من جديد، فمسحتها في صمت.

كلماتها المعلنة بدأت تشرح قضيتها.. فهي ممتلئة بالخيبة والاحباط وغارقة في لجج الحياة الصعبة.. ولا تتقن السباحة في محيط نهاية القرن العشرين.

أحسست بجراحها، وقد كشفت عيناها السوداوان عن أسرار نفسها. بت كأنني أعرفها حق المعرفة.. تتكلم هي فأجد صدى لكلماتها في نفسي.

حين حاولت مسح دموعها صدتني بقسوة ووحشية..

قلت بحنان كبير: أنا امرأة مثلك.. لي مشاكلي واحزاني..

صاحت صه.. أنت هادئة.. لا تشكين من شيء.

نظراتها الهائجة: أثارت الرعب في روحي.. وحديث العقل لا ينهي المشكلة.

واحترت.. وأنا أتأمل تفاصيل وجهها.. حتى سمرتها كانت سمرتي.. وأنفها هو أنفي.

عنقها، صدرها، وكتفاها، كلها كانت أنا..

ظلت تغمغم بكلمات، كانت تخرج من فمها ناقصة، وكأن لسانها عجز عن متابعة أفكارها المنطلقة كتيار جارف..

وحين التصقت بها من جديد.. احتدت، وزمجرت، مستغربة تطفلي. وقد بدت كطفل شقي، مزق الأولاد وجهه في الأزقة الضيقة وعلت القذارة وجهه.

تضاربت مشاعري نحوها وناست بين حب وكره، بين عطف وقسوة..

تمنيت للحظات أن أضمها الى صدري.. أن اخفف عنها.. ولكنها كانت متمردة كفرس حرون.

عاصفتها اقتربت مني، وحاذت مخيلتي، وكأن عدوى آلامها قد انتقلت الي.. بدأت اتحسس جسدي.. وأتساءل:

هل أنا أحلم؟ أم أنني أحيا واقعا مريرا؟..

مشاعر الحسرة تسربت إلي ووصلت الى جنبات نفسي.. ففاضت، وبدأت تعطي أكلها. قلت لها بلطف شديد: لكل مشكلة حلّ. وأنت لم تعدمي الحلول كلها هاتي ما عندك أمرا أمرا وربما نجحت في مساعدتك على ايجاد الحل.

ـ قالت: أنا موظفة.. وراتبي محدود.. ينتهي في الأيام الاولى من الشهر.. والأولاد لايدركون تلك الحقيقة.. ولن يفهموا ماحل في العالم بعقولهم القاصرة.

يفتحون الثلاجة فيجدونها فارغة.. يطلبون النقود فأرفض إعطاءهم اياها.

ينظرون الى ايدي الآخرين فيجدونها ممتلئة.. يعودون الى البيت ممتلئين بسخط دائم علي..

تجرأ اليوم أحدهم وقال: لماذا تنكرين نعمة الله عليك.. اخرجي من هذا المكنوز.

ابني هذا لن يدرك أبداً بأن العالم يسرع نحو النهاية.

وكل شيء يحتاج الى مال.. أفهمت الآن مأساتي؟..

كنت اصغي اليها ولا أحر جوابا، فكل ما تحدثت عنه كان صدقا.. وكل فكرة شرحتها وجدت صداها في نفسي.

دموعها المنهمرة، دفعتني للبكاء وكأنها تحدثت بلساني.. استعذت من الشيطان ـ قاتله الله ـ كم يثير في نفوسنا من الوساوس!!

لقد صار الفقر هاجسا.. تعملق، وبدأ يترك وشمه على جلودنا بدأت أطمئن مثيلتي، وأهدئها، وأنا لا أومن بكلمة واحدة مما أقول.. بل أكذب عليها، وعلى نفسي.

أنا أتألم مثلها.. أثور كما تثور.. وأنفجر كما تنفجر.. وابحث عن الحلول ولا أجدها، ولا أخجل من إعلان غضبي.

أخذت تلك المرأة من يدها.. وعدت بها الى بيتي.. أغلقت الباب بالمفتاح.. ثم فتحته.. فاللصوص يدركون أين تختبىء النقود؟

ظل الجو بيني وبين المرأة مشحوناً بالتوتر. ثم هطلت امطار، وتلاشى سحاب..

اقتربت منها، ومسحت دموعها، وشطفت وجهها.. وحين حاولت تجفيفه، اختفت تلك المرأة، ولم أجد امامي سوى وجهي.. وقد بدا شاحبا.. ممتقعا مصفرا.. وكأنني قمت للتو من مرض شديد.

* * *

الفصول الخمسة

بقلم:
هيفاء رزق

لا بد من فصل آخر لا بد من فصل خامس يا وليد! لا ليس هذا طبيعياً وما جرى انتهاك كبير لقيمنا الإنسانية! أمسك بيدها وربت على كتفها بحنو فلم تهدأ ظل وضعها يزداد، والعرق يتصبب منها، وهي تتابع صراخها، لا بد من فصل آخر يا وليد، أخذته الشفقة عليها، أجلسها على كتفه وأعاد خصلات شعرها الى الوراء، وأخذ يحاول تهدئتها من جديد، ظلت تتابع كلامها دون توقف، نظر حوله فرأى ظلام الليل تبدد، شعر بالتفاؤل أمسك بكأس الماء ليناولها جرعة تعيد لها الوعي، *ارتطمت يده بالمسجلة التي* وضعتها الزوجة قرباً منها، أيقن انها حين تستيقظ ستسمع هذا الكلام الغريب المتقطع على شريط التسجيل، كل محاولاته لتهدئتها ذهبت هباء، اخيراً تناول من الخزانة المجاورة قرصاً مهدئاً أعطاه لها، وأسندها الى الوسادة مرة أخرى، وجلس بجوارها ليراجع فصول حياته معها كما تقول!

فصل الخريف: ـ لم أكن أتخيل ان لقاءاتنا ستبدأ في فصل الخريف، دائماً كنت أحب وجه السنين الضاحك، أكره الاصفرار والشحوب، لكنني رغم ذلك سألتقي محبوبتي في هذا الجو الشاحب، وعدتها أن اخلص الحب، وان نربي أولادنا خير تربية، نظرت الى بعينيها الجميلتين فأحسست ان ثقتها بي كبيرة جداً، فغمرني تفاؤل كبير لم أستيقظ منه الا على صوت داخلي يهز وجداني، بل يقرعني، ماذا أعددت وماذا هيأت لمسؤولية الزواج، هل هيأت المنزل، والعمل الذي تعمله هل تكفيك مدخراته من اجل القيام بالمسؤولية الكاملة تجاه بيتك وأولادك. لاحظت الحبيبة تغير لوني وارتعاشي. فطمأنتها أنني اكره الخريف لأن شحوبه ينعكس على بشرتي وملامحي، فداعبتني بقولها: ـ لكنه فصل العمل والجد فهيا الى مضاعفة الجهود، من اجل ترسيخ اسس متينة، نستند عليها في زواجنا هذه الجملة ايقظت كل خلجاتي، وقلبت كياني

رأساً على عقب، أبي رحمه الله قبل يوم عرسه باع البقرة الوحيدة في البيت، كي يستطيع الانفاق على مستلزمات فرحه، واصبح عرسه حديث القرية في ذلك الوقت!

ـ اين ذهبت بأفكارك كأنك لست معي؟ هكذا سألته الحبيبة ـ ربما اضطر الى بيع البقرة! لا أقصد السيارة، ولا بد ان ثمنها سيفي بالنفقات اللازمة بما فيها مدخرات نستند اليها فيما بعد!

سنجعل فرحنا أسطوريا، يتحدث النساء عنه، كما تحدثوا عن عرس أبي رحمه الله.

لابد ان نفعل كل ما يدعم حبنا ويذكيه اقتربي مني يا هناء، كل شيء اعددته ليفرحك.

ـ وبعد العرس أين نسكن يا وليد؟

ـ نسكن في بيت أهلي حتى ينتهي اعداد المنزل الذي سجلت عليه في الجمعية السكنية.

ـ بيت أهلك؟ لا بأس ريثما ينتهي اعداد المنزل الذي سجلت عليه في الجمعية السكنية أعني اعداد منزلنا.

ـ نعم سأستدين مبلغ ٥٠٠ خمسمائة الف ليرة سورية من المصرف العقاري لأقوم بتسديد ما يترتب علي دفعه.

تصوري يا هناء أحلم ان نعيش اجمل الايام، احلم بالجمال والحياة الهانئة السعيدة من اجل ذلك اعمل من الساعة الثامنة صباحاً، حتى التاسعة ليلاً، عملان في وقت واحد!

ـ هنيئاً لي بك يا وليد، اننا سنعمل معاً من اجل حياة حرة كريمة لنا ولأولادنا. لقد كان لقاء ممتعاً، أين نلتقي في المرة القادمة؟

ـ لا المرة القادمة، سيكون احتفالنا وزفافنا، سنلتقي في البيت، وداعاً ياحبيبتي أحبك كثيراً من كل قلبي وعبارتي لا تنعكس على احرفها أجواء الخريف الشاحبة.

فصل الشتاء: ـ لم أزل أعيش جو البهجة، وترانيم الزغاريد التي هيمنت على البيت في يوم الزفاف ياله من يوم خالد في ذاكرتنا جعل الله أيامنا هناء يا هناء اليوم انتهت اجازة الزواج وعلينا الذهاب الى العمل غداً، ذهبت هناء الى العمل في الغد، وكذلك ذهب وليد وكله نشاط، وفي ذهنه يلتمع بريق من الوعود الجميلة، كان الزوجان يعملان من الساعة الثامنة صباحاً، الى الساعة الثامنة مساءً، وكلهما همة وعزيمة في سبيل تسديد الحسابات والنفقات اليومية، والديون المترتبة عليهما للمصرف!

ـ كل مدخراتنا في سبيل تسديد الديون يا هناء؟ هكذا خاطبها وليد بانفعال وعصبية!

ـ لم تتحدث بعنف وعصبية؟ هيا الى الابتسام، لقد بشرني الطبيب باقتراب مجيء ضيف جديد الى البيت مولودنا يا وليد

ـ مولود ولم؟ الضيق المادي يشتد ولم المولود؟

ـ أهذا يسبب لك الغضب؟

ـ لا لا يا هناء! إنني غير طبيعي، ألهث وراء كل شيء، أنفاسي تتلاحق، القهر يلاحقني، أنا الإنسان الذي لم يبدأ من الصفر، كنت امتلك سيارة وبعتها وأسكن في بيت اهلي، وانتظر بيت الجمعية، واتقاضى اجر عملين ومع ذلك لا اعرف الاستقرار، أغلقي النافذة يا هناء، فالبرد شديد، يا لهؤلاء الذين لا يملكون منزلاً، تعالي الى جانبي يا هناء فالبرد شديد، وأنا أحتاج الى حرارتك وانسك، البرد يزداد، والصقيع يأكل اجسادنا، والديون تتراكم والجيوب تعاني فراغاً أشد من صقيع الشتاء!

فصل الربيع: هل انقشعت غيوم الشتاء، أين جمال الربيع، إنني لا أكاد أحسه من فرط الهموم وتراكمها! لقاؤنا الاول لم تنعكس عليه دكونة الخريف، لكن ربيعنا تلون بشحوب خسائرنا، اين لون الربيع الحقيقي؟!

ـ لا تشرد يا وليد خذ عني الطفل، ريثما أحضر رضعة الحليب،

ـ تدبري أمرك أريد الخروج لإتمام بعض الاعمال

ـ هل اعتراك الملل الى هذا الحد من حياتنا في البيت؟ ألا تحس بمسؤوليتك تجاه ملاذ ولدينا الصغير؟

يعود وليد في ذاكرته الى الوراء، ويقارن بين حياته السابقة وحياته الآن لقد بات ينسى، بل يسهو كثيراً، الحب غير مهم بالنسبة له، الرحمة لا تعرف قلبه أحياناً، يحب الهروب من البيت من المسؤولية، من نفسه من ذكرياته، لا يلقي بالا لشكوى زوجته وبكاء طفله، يبحث كثيراً عن أشياء لا يجدها، يا له من خائب محبط، أحس الساعات هي الساعات التي يلجأ فيها للنوم، لكن هيهات أن ينام، بدأ وجهه يشحب وقواه تخور، ورأسه يثقل عليه، شخص له الاطباء عدة أمراض، لكنه لم يلق لهذا بالاً، فالعلاج يستغرق وقتاً طويلاً، ويتطلب أموالاً كثيرة!

فصل الصيف: حل فصل الصيف، فصل القطاف، وجني المحصولات، لكنه اخذ يتساءل ما المحصولات التي يقطفها؟ ديونه تتراكم، وامراضه تنوعت، كان في مسيرته كمن يزرع الاشواك في دربه! كأنه لم يعمل شيئاً، كان يسير الى الوراء طوال عشرين عاما!

ـ ماذا نفعل يا وليد من اجل اولادنا؟ قالت له الزوجة التي لم تعرف كيف تدخل دوامة افكاره، وتعاريج خواطره اكثر الاحيان! حلم الانسجام والتوافق الدائم تحطم واندثر! خلا فاتها كثيرة معه، لم يعد يهتم بها اكثر الاحيان بل اصبح يتذرع بالخروج قائلاً: لدي مهمة تتطلب سرعة الانجاز، سارجع بعد قليل، مما يضطرها لإقفال باب الحوار معه، أخذت تفكر: ما باله كالضائع دائماً لا يجد نفسه، حاولتُ إنقاذه فلم استطع، بدأت تفكر بالهجرة الى الخارج وبيع البيت، وحمل الاولاد الى بلاد اخرى، تتسع للطموح ويعثر فيها الإنسان على الفرح والامل.

هكذا كانت تعلق على تصرفاته أحياناً محتجة غاضبة، وهو ينقل صور غضبها واعتراضها

ـ وليد ناولني قدح الماء أريد ان أبل ريقي

ـ هل استيقظت؟

ـ نعم لكنني لم أذكر شيئاً مماحصل لي، هل كنت نائمة طوال الوقت؟

أدار شريط التسجيل وقال لها: اسمعي ما كنت تقولينه عن فصلك الآخر فصلك الخامس.

الفصل الخامس: ـ لا يمكن ان تنتهي دورة الحياة هكذا، الى فراغ الى عدم، دون ربيع دون صيف، لقد اضعت في دوراني حول نفسي فصول الحياة فلم اشعر نشوة الربيع، ولا تدفق خيرات الصيف، أين فصلي الضائع، أمد بصري الى البعيد تتابع أنفاسي لاهثة من الجري والبحث والتساؤل، أسأل الجميع، يا للعجب كل يبحث عن فصله، وعن حلمه وعن امله، جميعهم لاهثون، يتعبون تسمرت ابصارهم حول المجهول، خيل اليهم انه حلم قادم، لكنهم حين اقتربت اناملهم المرتجفة منه تحاول التقاطه تبدد وتلاشى شيئاً فشيئاً، ثم انزاح كالوهم عن تفكيرهم.

أيمكن ان أقضي بقية حياتي لاهثة واجفة متسائلة أفتش عن جواب؟ حين أحسستُ بثقل في رأسي حاولت الاسترخاء مستسلمة للنوم، رأيت في نومي فصلي المفقود يرتدي ثوباً ربيعياً مخضراً، نقشت جوانبه بزهور متنوعة الالوان وتداخلت منها غصون تحمل ثمار كل الفصول، خفق قلبي بشدة، اقتربت شيئاً فشيئاً من اخضرار فصلي أمسكت ثمرة متدلية من عنق الغصن، كدت أن أضعها في فمي لولا انني أفقت هذه المرة على صراخ ابني الصغير!

ترى هل سأشاهد حقيقة هذا الفصل الاخضر المعطاء؟ وهل اتمتع بألوانه وثمراته كما كنت أتمنى دائماً أم أنني سأظل أحلم ويتلاشى حلمي كلما اقترب من أشعة الحقيقة المتوهجة؟

* * *